

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولود معمري - تيزي وزو -
كلية الأدب واللغات
قسم الأدب العربي



مذكرة لنيل شهادة الماجستير

تخصص : الأدب العربي
فرع : علوم اللغة

إعداد الطالبة : ناغش عيدة

أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين دراسة نحوية بلاغية تداولية

لجنة المناقشة :

- أ. د. صالح بلعيد: أستاذ التعليم العالي جامعة مولود معمري، تيزي وزورئيساً
د. بوجمعة شتوان: أستاذ محاضر صنف "أ"، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.....مشرفاً ومقرراً
د. حمو الحاج ذهبية: أستاذ محاضر صنف "أ"، جامعة مولود معمري، تيزي وزوممتحناً

تاريخ المناقشة: 2012/05/06

قال الله ﷻ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ

حَوْلِكَ﴾

[آل عمران: الآية 159].

وقال رسول الله ﷺ:

« تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي »

[رواه الحاكم عن أبي هريرة]

« لَقَدْ أَنْجَزَ الرَّسُولُ فِي عِشْرِينَ عَامًا مِنْ حَيَاتِهِ مَا عَجَزَ عَنْ إِنْجَازِهِ قُرُونٌ مِنْ جُهُودِ الْمُصْلِحِينَ الْيَهُودِ، وَالنَّصَارَى، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أُنْتَهَاهِ كَانَ أَمَامَ الرِّسَالَةِ تَرَاثُ أَجْيَالٍ مِنَ الْوَثْنِيَّةِ وَالْجُهْلِ، وَالْخُرَافَاتِ، وَاضْطِهَادِ الضُّعْفَاءِ، وَكُثْرَةِ الْحُرُوبِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَمِائَاتِ الشُّرُورِ الْآخَرَى. »

[دائرة المعارف البريطانية]

كلمة شكر

مصادقا لقوله ﷺ: « من لم يشكر الناس لم يشكر الله ».

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أ.د بوجمعة شتوان الذي أبى إلا أن يكرمني بقبوله واستعداده للإشراف على بحثي، وعلى ثقته التي وضعها فيّ، وعلى مساندته لي معنويا، وتشجيعاته لي، وحثه لي على الجد والمثابرة، فله مني كل الشكر والامتنان.

أتوجه بالشكر والعرفان لرئيسة قسم اللغة العربية، أ.د: حمو الحاج ذهبية. التي انتفعت بآرائها أثناء تدريسها لي في السنة التحضيرية، وأ.د صالح بلعيد الذي يأبى إلا أن يدفع بطلبته إلى الجد والاجتهاد، وأيضا أسمى معاني الوفاء لكل الأساتذة الذين درّسوني في مرحلتي الليسانس والماجستير خاصة أ.د صلاح عبد القادر.

كما أرفع أسمى معاني الود والاحترام ل. أ.د: أمانة بلعلى على وقوفها معي في الفترة التي سبقت إنهاء البحث.

والشكر الموفور للأساتذة الذين لم يبخلوا عليّ يوما بتوجيهاتهم: أ.د: السعيد حاوزة، وأ.د خليفة بوجادي، وأ.د: عبدوش، وأ: فتيحة بوسنة، وأ.د نعيمة عقريب. إلى كل موظفي إدارة ومكتبة جامعة مولود معمري.

إلى كل الزملاء والزميلات، إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد وللآخرين أيضا الذين غابت أسماؤهم عني، إلى كل هؤلاء الشكر والتقدير والاحترام.

كع عايدة

إهداء

إلى التي كانت سراجا ينير حياتي
إلى التي غرست في نفسي حب العلم، ورافقت خطواتي بالدعاء
إلى من منحني الطمأنينة والسكينة
إلى التي علمتني سمو الهدف.
إلى التي لولاها ما كنت ولا صرت
أمي رحمها الله.
إلى من ورثني حب العمل، والإخلاص فيه، والإصرار عليه
أبي رحمه الله.
إلى من ستبقى ذكراهما خالدة مادمت على قيد الحياة:
أخوي عمر وسعيد رحمهما الله
إلى من أعانوني على الصمود
إلى أشقائي احتراماً وتقديراً، وإلى أبناء إخوتي وأخواتي مودّة.
إلى كل من أحب
أهدي هذا العمل

بمناسبة عيد

مقدمة:

يُعدّ الحديث النبوي الشريف مصدرا معتمدا من مصادر اللغة والنحو، لذلك وجّه بعض الباحثين في العصر الحديث جهودهم نحو لغة الحديث، وقامت دراسات وبحوث في هذا الموضوع، ولا تزال لغة الحديث الثرية وأساليبه المتنوّعة بحاجة ماسة للدراسة، فجاءت بذلك أسباب اختيارنا لموضوع هذا البحث الموسوم بـ: (أسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية في رياض الصالحين دراسة نحوية بلاغية تداولية) وهي كالآتي:

– خدمة الأصل الثاني من أصول اللغة العربية وهو الحديث النبوي الشريف، والإسهام في إبراز خصائص لغته.

– الرغبة في رصد الظواهر اللغوية المتعلقة بأسلوب من الأساليب العربية الشائعة في الخطاب اليومي ألا وهو أسلوب الاستفهام، في لغة لها مكانتها الكبيرة والعظيمة على مر العصور مع محاولة رصد الظواهر اللغوية المتعلقة بهذا الأسلوب لكثرة وروده في الأحاديث النبوية الواردة ضمن مدونة حظيت بالإقبال عليها من المتقنين ومن دونهم.

– الإشارة إلى بلاغته ﷺ في تطويعه هذا الأسلوب لتحقيق غاياته وأهدافه، وتوظيفه في دعوته لنشر الرسالة.

– كوننا استفدنا من بحثنا المنجز في مرحلة الليسانس وكان بعنوان (سورة الكهف دراسة لغوية) والذي كان له فضل علينا من خلال صحبتنا لكتاب الله ﷻ، فأثرنا أن يكون بحثنا لنيل شهادة الماجستير في الأحاديث النبوية لنهل من معينها ونسعد بصحبته.

– ومما دعاني أيضا إلى الإقدام على تسجيل هذا الموضوع أنني لم أجد بحثا يتناول أسلوب الاستفهام من خلال الأبعاد الثلاثة (النحو والبلاغة والتداولية) على حسب اطلاع المتواضع.

إشكالية الدراسة:

انطلق البحث من إشكالية تتمثل في عدة تساؤلات مفادها:

- كيف تناول النحاة أسلوب الاستفهام؟ وما هي الجوانب التي اهتموا بها في دراستهم لهذا الأسلوب؟ هل تكشف الدراسة النحوية عن كل جوانب الخطاب في نص الحديث النبوي؟
- كيف تناول البلاغيون أسلوب الاستفهام؟ وما هي الإضافات التي قدموها في دراستهم لهذا الأسلوب؟

- إذا كنا نسلم بأن الحديث النبوي فضاء تواصل، بوصفه حجة نبرهن بها على قضايا كثيرة تصادفنا في حياتنا اليومية، أفلا يستجيب الحديث النبوي للدراسة التداولية؟
- استعمل الرسول ﷺ أسلوب الاستفهام بنوعيه الحقيقي والمجازي، في لغته للوصول إلى أهدافه المتمثلة في تبليغ الرسالة، أفلا نستطيع دراسة هذا الأسلوب الإنشائي ضمن نظرية الأفعال الكلامية التي جاء بها الدرس التداولي؟
- أيمن أن نقارب بين مبدأ التعاون في اللغة - وهو مبدأ تداولي - وما يتفرع عنه من قواعد الخطاب، وبين الحديث النبوي وأبعاده التواصلية؟
- لا يقال القول النبوي بل الحديث النبوي، وهذا معناه وجود طرفين في الحوار أو أكثر ألا يمكن إذا دراسة لغة هذا الحديث بغرض الإجابة عن الأسئلة التي جاءت التداولية لتجيب عنها مثل: من يتكلم؟ كيف يتكلم؟ مع من يتكلم؟ وماذا يريد أن يقول؟ وغيرها من الأسئلة.
- نتيجة لما سبق ذكره اخترنا أن ندرس لغة الحديث النبوي في إطار التداولية، لأنّ النظرية التداولية تهتم بالاستخدام اللغوي وأثره على المتلقي والتفاعل بين المتخاطبين، لتحقيق الفائدة التي هي مقصد المرسل من الخطاب.
- وعلينا أن نشير إلى أننا -في هذا البحث- لا نسقط المنهج التداولي على نص الحديث وإنما اعتبرناه طريقة نقرأ بها لغة الحديث، فقراءته على ضوء النظريات الحديثة له من الأهمية بمكان إذ لا بد من التسلح بالمفاهيم اللسانية المعاصرة لرصد مفاهيمه وأبعاده التداولية.

الفرضيات:

- وتبني فرضيات هذا البحث انطلاقاً من الآتي:
- هل ورود أسلوب الاستفهام في الحديث النبوي جاء بغرض تحقيق جملة من الأغراض المتصلة بالمخاطب والمخاطب، وشكل الخطاب، ودلالته.
- هل يحقق أسلوب الاستفهام السهولة من حيث الأداء، وتقريب المفهوم، وإيصاله إلى المخاطب وإحداث التأثير الأبلغ لديه.
- أيمن أن يشكل أسلوب الاستفهام إجازاً واقتصاداً لبنية الخطاب، كما يحقق توسعاً في المعنى لتنتج عنه دلالات كثيرة ومتنوعة، كالتفخيم، والتعظيم، والتهويل، وغيرها من الدلالات.

أهمية البحث:

- يستمد هذا البحث أهميته من كونه يتناول موضوعاً يرتبط بلغة الحديث النبوي، ألا وهو أسلوب الاستفهام المتضمن في كثير من الأحاديث النبوية الواردة في كتاب (رياض الصالحين)

لمؤلفه الإمام النووي، وكيفية استخدامه ﷺ لهذا الأسلوب للتأثير في المتلقين، ولفت انتباههم والارتقاء بهم وتحويل موقفهم من موقف سلبي إلى آخر إيجابي، أو بغرض إخبارهم بأمر مهم وغيرها من المقاصد والأغراض المتوفرة لديه ﷺ.

منهج البحث:

اتبعنا في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، الذي فرضته طبيعة المدونة وطبيعة الموضوع، فالمنهج الوصفي يسعى لوصف الظواهر اللغوية كما هي موجودة في المدونة ويمكن من خلاله وصف الظاهرة اللغوية وتحليلها، مع التركيز على رصد النصوص الواردة في كتاب (رياض الصالحين) المتضمنة لأسلوب الاستفهام الذي وظفه الرسول ﷺ في أحاديثه والتي تعد الشواهد التطبيقية لما ورد في الجانب النظري كما اعتمدنا على بعض آليات التحليل التداولي في تحليلنا للأحاديث النبوية من المنظور التداولي.

حدود البحث:

تناول هذا البحث أسلوب الاستفهام الوارد في كتاب (رياض الصالحين) وسعى إلى استخراج الصور والتراكيب التي ورد فيها هذا الأسلوب، كما اقتصرنا شواهد الدراسة على أقوال الرسول ﷺ أي الأحاديث التي قالها الرسول ﷺ دون الأحاديث التي تدرج تحت باب الفعل (السنة الفعلية) ودون أقوال الصحابة رضي الله عنهم التي كانت تتخلل سياق الأحاديث النبوية.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في ثلاثة فصول، صُدِّرت بمقدمة عرضنا فيها الخطوط العريضة للبحث، ثم أتبعناها بتمهيد عرضنا فيه تعريفا موجزا للنووي وكتابه (رياض الصالحين) كما تطرقنا أيضا في التمهيد إلى الحديث عن بلاغة النبي ﷺ وآراء علماء اللغة حول الاستشهاد بالحديث النبوي.

الفصل الأول وعنوانه الاستفهام في النحو تطرقنا فيه إلى تعريف الاستفهام، والكيفية التي تناول فيها النحاة لهذا الأسلوب ثم ذكر أدواته ثم تعرضنا فيه إلى الأنماط التي وردت عليها أدوات الاستفهام في الأحاديث النبوية.

الفصل الثاني عنوانه الاستفهام في البلاغة تطرقنا فيه إلى أسلوب الاستفهام عند البلاغيين والأغراض التي يخرج إليها، ثم تناولنا فيه شواهد من الأحاديث خرج فيها أسلوب الاستفهام إلى أغراض بلاغية.

الفصل الثالث وعنوانه بـ: الاستفهام من منظور النظرية التداولية تطرقنا فيه إلى المفاهيم التي جاءت بها التداولية، وأسلوب الاستفهام من منظور آليات التحليل التداولي ودرسنا من خلاله أسلوب الاستفهام ضمن الأفعال الكلامية، والأفعال الإنجازية. اختتمنا البحث بخاتمة عرضنا من خلالها النتائج المتوصل إليها والتوصيات، أتبعناها بفهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

الدراسات السابقة:

تناول الكثيرون ممن كتبوا في النحو أو البلاغة أسلوب الاستفهام بالدراسة، فمنهم من أفرد له مبحثا خاصا به في كتابه كما فعل إسماعيل قيس الأوسي في كتابه (أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين) ومنهم من ألف كتابا حول هذا الأسلوب كما فعل قطبي الطاهر الذي ألف سلسلة أجزاء بعنوان: (بحوث في اللغة) تناول في الجزء الأول: الاستفهام النحوي وفي الجزء الثاني: الاستفهام البلاغي وفي الجزء الثالث: الاستفهام بين النحو والبلاغة.

كما ألفت حول أسلوب الاستفهام رسائل ماجستير ودكتوراه مهمة لم يسعفني الحظ في الحصول عليها رغم أنني سعيت للإطلاع عليها ومن هذه الرسائل:

1- (أسلوب الاستفهام في رياض الصالحين دراسة بلاغية) للطالب إبراهيم طبشي، مسجلة بجامعة الجزائر لسنة 2009م.

2- (أسلوب الاستفهام في الصحيحين) للطالب عبد العزيز بن عبد العزيز العمّار، رسالة ماجستير مسجلة بجامعة الملك آل سعود.

3- (أساليب الاستفهام في القرآن الكريم) للمؤلف عبد العليم السيد فودة، وهي رسالة ماجستير 1372هـ، مسجلة بجامعة القاهرة.

4- (أساليب الاستفهام في القرآن الكريم) للدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود، وهي رسالة دكتوراه مسجلة بجامعة القاهرة.

اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع وذلك في الميادين المتصلة بموضوع البحث فكان منها: الكتاب الذي اخترته مدونة لبحثي: (رياض الصالحين) للإمام أبي زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، خرّج أحاديثه: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد وأيضا كتاب (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني، و(الكتاب) لسيبويه، و(الخصائص) لابن جني، و(سلسلة

بحوث في اللغة) للطاهر قطبي وكذلك كتاب (استراتيجيات الخطاب) لظافر الشهري وغيرها كثير.

أهم الصعوبات:

من المعروف أنه لا بد لسالك درب البحث العلمي من صعوبات وعقبات تواجهه، ولكنها مهما كانت فإنها تهون أمام الرغبة في طلب العلم، ومن أهم الصعوبات التي واجهتنا:

- الظروف الاجتماعية التي حالت دون التنقل للحصول على مراجع مهمة.
- دراسة أسلوب الاستفهام لم تكن مقصورة على طائفة محددة من العلماء، فقد تناول هذا الموضوع اللغويون كما تناوله البلاغيون، ولكل طريقتة الخاصة وقد استلزم ذلك كله الرجوع إلى مؤلفات هؤلاء العلماء لجمع شتاته.
- اختلاف المصطلحات الخاصة بالمنهج التداولي، مع اختلاف آليات التحليل التداولي من باحث لآخر.

- كثرة الشواهد التي تناولتها هذه الدراسة، فضلاً عن الروايات المتعددة للحديث الواحد فكان لزاماً علينا أن نقف عليها، لبيان ما اختصت به كل رواية عن الأخرى فيما يتعلق بالجملة الاستفهامية، ولقد زاد هذا الأمر صعوبة تشعب مباحث أسلوب الاستفهام، وكثرة قضاياها والموضوعات المنطوية تحته.

فهذه بعض الصعوبات التي واجهتنا في كتابة هذا البحث، ولكن بالاستعانة بالله عز وجل تحقق كل شيء، وهان كل خطب، وما هو إلا توفيق من الله عز وجل.

وإن كان هذا البحث قد تم فإن الفضل في إنجازه يعود إلى أصحاب الفضل والأيدي السابغة، لذلك أتقدم بالشكر الجزيل والدعاء الصادق للأستاذ المشرف على هذا البحث أ.د. بوجمعة شتوان على الثقة التي وضعها فيّ حين قبوله الإشراف على هذا البحث، هذه الثقة التي دامت إلى غاية تقديمه للجنة العلمية، مع تقديري له على نبل التعامل، فאלله أسأل أن يثيبه على ذلك، وأن يجزيه خير الجزاء، وأن يرفع درجته في الدنيا والآخرة.

كما لا أنسى أن أقدم تحية تقدير وعرفان لكل من الدكتور صالح بلعيد، ورئيسة قسم الأدب العربي أ.د. ذهبية حمو الحاج على قبولهما وتفضلهما مناقشة هذا البحث، وتصويب أخطائه وتحمل معاناة القراءة والنقويم، وفاء بالمسؤولية الأكاديمية، ومساهمة في بناء صرح البحث العلمي بجامعتنا، وأشكرهما على تلقينهما لي أصول البحث العلمي، وحثهما لي على

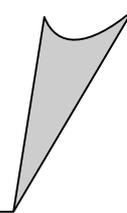
مقدّمة

المثابرة، والسعي للأفضل دائماً في مجالي المعرفة والمنهجية، فبارك الله لهما في علمهما وأخلاقهما.

والشكر موصول للأستاذة. د آمنة بلعلى لما قدمته لي من يد العون في الفترة التي سبقت تقديم هذا البحث، ووقوفها معي في أصعب مرحلة اجتزتها في حياتي كلها، فلها مني كل الشكر والتقدير والاحترام.

وأخيراً أسأل الله وَعَلَى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والسداد، ويجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

تَهْنِئَةٌ



يُعدُّ الإمام النووي من العلماء المسلمين الذين أنجزوا عدة مؤلفات حول الأحاديث النبوية الشريفة، وذلك وعيا منهم بأهميتها التشريعية واللغوية والبلاغية، ولهذا اخترنا كتابه (رياض الصالحين) ليكون المدونة التطبيقية لبحثنا، ولكن قبل التطرق إلى مختلف إشكالات الدراسة فضلنا أن نقدم لمحة موجزة عن هذا العالم الجليل، وكذلك مؤلفه (رياض الصالحين) باعتباره المدونة المختارة للبحث والتحليل.

1- التعريف بالإمام النووي:

هو الإمام العلامة محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن حزام بن محمد بن جمعة النووي الدمشقي، ولد رحمه الله في العشر الأول من محرم سنة 631 هـ في قرية نوى من قرى حوران في سورية من أبوين صالحين، فلما بلغ العاشرة من عمره قدم به أبوه إلى دمشق، فبدأ في حفظ القرآن الكريم وقراءة الفقه على بعض أهل العلم هناك وتولَّى التدريس بدار الحديث الأشرفية سنة (665هـ)، وحجَّ مرتين.

سافر في آخر عمره إلى بلده وزار القدس والخليل، ثم رجع إليها فمرض بها، وتوفي ليلة الأربعاء من رجب سنة (676 هـ)، ودفن في قريته نوى¹.

2- نشأته وحياته العلمية:

نشأ في نوى ثم في دمشق، وقرأ بها القرآن، وتفقه على أيدي مشايخها، وتفنن في أصناف العلوم وأتقنها، وتولى التدريس بدار الحديث، وسكن المدرسة الرواحية وهي ملاصقة للمسجد الأموي من جهة الشرق، وقد تميزت حياة النووي بعد وصوله إلى دمشق بأمر ثلاث وهي :

أ- كان جاداً في طلب العلم ليلاً ونهاراً، وأخذ العلم من كل مأخذ، وقد حفظ كتاب (التنبيه) في أربعة أشهر ونصف، وحفظ ربع العبادات من كتاب (المهذب)* في باقي السنة ونال إعجاب شيخه أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد المغربي، فجعله معيد الدرس في حلقاته.

ب- كان واسع العلم ذا ثقافة عالية، فقد جمع إلى جده غزارة العلم والثقافة المتعددة، وكان يقرأ كل يوم دروساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً.

¹- ينظر: الحافظ بن عبد الرحمن السخاوي، حياة الإمام النووي رحمه الله، تع: مصطفى البغا، د ط، الجزائر: د ت دار الهدى عين مليلة، ص 99.

* المهذب: فقه شافعي لأبي إسحاق الشيرازي، وقد شرحه الإمام النووي، وسماه (المجموع) في (22) مجلداً، وهو أوسع كتاب في الفقه على هذا المذهب.

ت- كان غزير الإنتاج وافر التأليف بدأه (عام 660هـ)، وقد بلغ الثلاثين من عمره، وبورك له في حياته، فأذاب جهد فكره وثقافته في كتب ومؤلفات فيها سهولة العبارة ووضوح الدلالة وقوة الدليل والإنصاف في عرض آراء الفقهاء، وما زالت مؤلفاته تُحظى بمزيد الاهتمام والعناية والتدريس في كثير من بلاد الشام.

تصنيفاته: من تصنيفات النووي: (روضة الطالبين)، و(شرح صحيح مسلم)، وكتاب الأسماء واللغات والأذكار المسمى (بحلية الأبرار)، ورسالة في العقيدة أسماها (المقاصد والتبيان في آداب حملة القرآن) وغير ذلك من الكتب.¹

3- كتاب رياض الصالحين:

كتاب (رياض الصالحين) هو كتاب مختصر، جمع فيه الإمام النووي طائفة كبيرة من الأحاديث النبوية من كتب الصحاح، وصدّر موضوعاتها بآيات من الذكر الحكيم بما تناسب كل موضوع، وهو من الكتب الجامعة للترغيب والترهيب، التزم فيه ذكر الأحاديث الصحاح الواضحات من أمهات كتب الحديث.

وقد شرح هذا الكتاب الشيخ محمد بن علان في ثمانية أجزاء، وهو من علماء القرن العاشر للهجرة النبوية، أسماه (دليل الفالحين)، وكان شرحه مؤدياً لحاجة عصره ولطلاب زمانه وشرحه في العصر الحديث أساتذة كرام هم: الدكتور مصطفى سعيد الخن، والدكتور مصطفى البغا، والأستاذ محي الدين مستو، والأستاذ علي الشرجي، والأستاذ محمد أمين لطفي، وقد شرحوه شرحاً مدرسياً مناسباً لمقتضيات الظروف الاجتماعية الحاضرة والأساليب التربوية المعاصرة، وقد خرجوا الآيات الكريمة من كل باب، وذكروا مرجع كل حديث وبابه من كتب الصحاح في الحديث، وذكروا ما يستفاد من الحديث ليقف القارئ على فوائد جمّة ومنافع علمية كثيرة، وسمّوه بـ (بنزهة المتقين شرح رياض الصالحين).

4- تعريف الحديث:

-**الحديث لغة:** تطرقت عدة مصادر ومراجع إلى تعريف الحديث النبوي، وقد عرفه ابن منظور في لسان العرب بأنه «إطلاق الحديث على الكلام يعد فرعاً من الأصل الذي هو نقيض

¹ - أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، خرّج أحاديثه: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، د ط. الجزائر: د ت، دار الرشيد للكتاب باب الواد، ص7.

تمهيد

القديم»¹ وجاء في كليات أبي البقاء أن الحديث هو اسم من التحديث، وهو الإخبار،² ثم سُمِّيَ به كل قول أو فعل، أو تقرير ينسب إلى الرسول ﷺ.

وقد استعمل القرآن الكريم مصطلح الحديث بهذا المعنى، أي للدلالة على الكلام تخصيصاً من المعنى العام فنجد هذا المصطلح في قوله ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9] وأيضاً في قوله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ﴾ [الغاشية:01].

-اصطلاحاً: إذا أطلق مصطلح الحديث النبوي أريد به ما أضيف إلى النبي ﷺ من فعل أو قول أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية* وقد يراد به ما أضيف إلى صحابي أو تابعي، ولكن الغالب أن يُقَيَّد إذا أريد به غير النبي ﷺ ويطلق الأثر والخبر ويراد بهما ما أضيف إلى النبي ﷺ، وما أضيف إلى الصحابة والتابعين، وهذا رأي الجمهور،³ والمرفوع منه هو المنسوب لفظه للنبي ﷺ والموقوف هو ما أسند للصحابي من قول وفعل وتقرير، والمقطوع هو ما أسند للتابعي.

وقد عرفَ الحافظ بن كثير الحديث الصحيح بأنه «المتصل سنده بنقل العادل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى الرسول ﷺ أو إلى منتهاه من صحابته، أو من دونه، ولا يكون شاذاً ولا مردوداً ومعتلاً بعلّة قاذحة، أو قد يكون غريباً، وهو متفاوت في نظم الحفاظ في مجاله»⁴.
لقي الحديث النبوي اهتمام علماء أجلاء أفنوا عمرهم في جمعه وتصنيفه، ومن هؤلاء نذكر الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وإليهما تنسب أهم كتب الحديث لتأتي بعدهما الصحاح الأربعة الأخرى، وهي سنن النسائي وابن داوود وابن ماجه وسنن الترمذي، ولقد اعتمد النووي في تأليفه كتاب رياض الصالحين بنسبة كبيرة على الصحيحين ما جعل كتابه حجة في الأحاديث الصحيحة.

¹ - أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، تح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبيدي ط3. بيروت: د ت، دار إحياء التراث العربي، مادة (حدث).

² - أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء، الكليات، ط 4. بيروت: 1281هـ، دار الفكر للطباعة، ص152.

* - هذا تعريف المحدثين وهم أعرف به، أما الفقهاء والأصوليون فلهم تعريفات أخرى نجدها مبثوثة في كتب علوم الحديث.

³ - محمد عجاج الخطيب، أصول الحديث، علومه ومصطلحه، ط4. بيروت: 1981م، دار الفكر للطباعة، ص28.

⁴ - الحافظ ابن كثير، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، تح: محمد ناصر الدين الألباني، تح: علي بن عبد الحميد الحلبي، ط1. الرياض: 1996م، مكتبة المعارف، ج1، ص100.

5- الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف:

أعرض نحاة البصرة والكوفة عن اعتماد الحديث الشريف دليلاً معتمداً عليه في الاحتجاج لإثبات القواعد النحوية، واقتصروا على اعتماد أدلة السماع الأخرى، وأولها القرآن الكريم، ثم كلام العرب شعراً كان أم نثراً، لأن الأغلبية من رواه كانوا من الأعاجم، ولأنه نقل بالمعنى ولم ينقل بالحرف، وبناءً عليه، فإننا نجد مصادر اللغة شبه خالية من شواهد الحديث النبوي واتسعت بعد ذلك دائرة الخلاف حول الاستشهاد بالحديث الشريف، وتضاربت الآراء بين النحاة وكان المفترض أن يصبح هذا النص مصدراً رئيساً من مصادر الدرس النحوي، باعتباره أصح نص لغوي بعد القرآن الكريم وهذا بعد إجماع العلماء أن الرسول ﷺ أفصح من نطق بالضاد فقد كان حقه أن يتقدم على كلام العرب نثرهم وشعرهم في باب الاحتجاج، وتقرير القواعد وسنعرض هنا باختصار الآراء المختلفة في هذا الموضوع.

5-1- الاتجاه الأول: الذي يرى أصحابه منع الاستشهاد بالحديث النبوي، وعلى رأس

أصحاب هذا الاتجاه بن الضائع أبو الحسن الإشبيلي (ت 680 هـ) وتلميذه أبو حيان النحوي (ت 745 هـ) وسندهما في ذلك عدة أمور:

– **الأول:** إن الأحاديث رويت بالمعنى، وفي ذلك يقول أبو الحسن الضائع في كتابه شرح الجمل: «تجوز الرواية بالمعنى هو السبب في ترك الأئمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان الأولى في إثبات فصيح اللغة كلام النبي ﷺ لأنه أفصح العرب»¹.

– **الثاني:** أن أئمة النحو المتقدمين لم يحتجوا بشيء منه.

– **الثالث:** أنه وقع اللحن في كثير مما روي من الأحاديث لأن كثيراً من الرواة كانوا أعاجم.

ويُرَدُّ على ذلك أحمد مختار عمر فيقول: «إن القدماء الذين نسب إليهم رفضهم الاستشهاد بالحديث لم يثيروا هذه المسألة، ولم يناقشوا مبدأ الاحتجاج بالحديث، وبالتالي لم يصرّحوا

¹ - جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ط 1. مصر: 1979م، المطبعة الأزهرية، ص 54.

برفض الاستشهاد به وإنما هو استنتاج من المتأخرين الذين لاحظوا- خطأ- أنّ القدماء لم يستشهدوا بالحديث، فبنوا عليه أنّهم يرفضون الاستشهاد به»¹.

ويُردُّ على هذا أيضا بأنّ النقل كان في عصر الاحتجاج حيث لم تفسد اللغة، والتبديل كان تبديل لفظ بلفظ، أي أن التبديل وقع وحدث في عصر الاحتجاج، وأيضا عدم احتجاج المتقدمين بالحديث ليس دليلا على عدم صحة الاستدلال به، كما أنّ الكثير من الألفاظ التي أنكرها اللغويون وعُدَّت عندهم لحنا ذكر لها لغويون آخرون وجها مقبولاً، ويضاف إلى ذلك أن وجود ألفاظ غير موافقة للقواعد المطردة، لا يقتضي ترك الاحتجاج بالحديث جملة، وإذا وقع في رواية بعض الأحاديث غلط أو تصحيف، فالأشعار أيضا يقع فيها الغلط والتصحيف.

5-2- الاتجاه الثاني: والذي يرى أصحابه جواز الاستشهاد بالحديث النبوي، وأغلبهم من

اللغويين وأصحاب المعاجم، لأنّ هدفهم المعنى، وهذا لا يجعلهم يتحرّجون من الاستشهاد بالحديث، وقد قيل: إنّ من الأوائل الذين أقدموا على الاحتجاج بالحديث ابن خروف (ت209هـ) وكذلك أبو القاسم الزمخشري (ت538هـ)²، إلا أنّ من بين الذين اشتهروا بالاحتجاج بالحديث النبوي هم ابن مالك (ت672هـ)، وابن هشام (ت761هـ) وحجتهم في ذلك: الإجماع على أنه ﷺ أفصح العرب، ولا عبرة بأنّ أغلب الرواة من الأعاجم لأنه يمكن أن يقال ذلك في الشعر والنثر وعلى الرغم من ذلك يحتج بما جاء فيها كما أنه قد ظهر أنّ كثيرا مما ينسب إلى اللحن في حديث رسول الله ﷺ قد ظهر له وجه من الصحة وعليه خرّجت الأحاديث³.

نستنتج من خلال هذا العرض لآراء النحاة في موضوع الاستشهاد بالحديث النبوي، أنّ منع النحاة الاستشهاد بالحديث النبوي بالرغم من وجود أسانيد صحيحة، وأيضا مصنّفات الحديث، هو للتحرز الديني، وهذا بالنسبة لعلماء النحو القدماء، أما المتأخرون فكان انصرافهم عن الحديث هو سبب الرواية بالمعنى، أو اللحن في المتن، وهذا السبب غير مقنع لأنّ هناك مصنّفات خاصة بالأحاديث الصحيحة، والتي لا لحن فيها.

5-3- الاتجاه الثالث: يتّخذ أصحاب هذا الاتجاه الموقف الوسط بين المنع والجواز

وعلى رأسهم أبو الحسن الشاطبي (ت790هـ) الذي اشترط للاستشهاد بالحديث النبوي الاقتصار على الأحاديث التي أعتني بنقل ألفاظها، فوقف موقفا وسطا، فهو في البداية ينكر على أبي حيّان

¹ - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط7. مصر: 1997م، عالم الكتب للنشر، ص 120.

² - جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص 54.

³ - طه الراوي، "نظرات في النحو"، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق: د ت، ع 14، ص 327، ص 225.

وأصحابه في رفضهم التام الاحتجاج بالحديث، إذ كيف يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم وأشعارهم فيها فحش ويتركون الأحاديث الصحيحة لأنها تنقل بالمعنى وتختلف روايتها وألفاظها، ثم يعيب على ابن مالك كثرة احتجازه بالحديث الشريف.

أما عن الاحتجاج بالحديث النبوي في العصر الحديث فإننا سنقتصر فقط على ذكر ما توصل إليه مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أصدر النص الآتي:

1- لا يحتج في العربية بحديث لا يوجد في الكتب المدونة في الصدر الأول، كالكتب الصحاح الست فما قبلها.

2- يحتج بالحديث المدون في هذه الكتب على الوجه التالي:

أ- الأحاديث المتواترة والمشهورة.

ب- الأحاديث التي تُعدّ من جوامع الكلم.

ت- كتب النبي ﷺ.

ث- الأحاديث المروية لبيان أنه كان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم.

ج- الأحاديث التي دوتها من نشأ بين العرب الفصحاء.

ح- الأحاديث التي عرف من حال روايتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل القاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وابن سيرين.

خ- الأحاديث التي تستعمل ألفاظها في العبادات.

د- الأحاديث المروية من طرق متعدّدة، وألفاظها واحدة.¹

6- بلاغة النبي ﷺ:

لن نقف في هذا البحث للحديث عن لغة النبي ﷺ لأن الموضوع يحتاج إلى فصل كبير والمقام هنا لا يتسع لذلك، وأنا هنا لن أتى بالجديد، لأنّ الحديث عن فصاحته نجده ماثلاً في كتب السيرة النبوية والكتب الفقهية كما تحدّث علماء البلاغة والنحو عن فصاحته وبلاغته فلن نضيف شيئاً لما قاله عنه الجاحظ أو ما قاله مصطفى صادق الرافعي.

إذا كان العرب قد عرّفوا بالسليقة اللغوية التي تأبى اللحن، وبالفصاحة والبلاغة، وأنقنوا كلامهم وحذقوا في شعرهم، فلأنّ هذا كان عن نظر متقدم، وتكلف منهم، ومع هذا فهم لم يسلموا

¹ - محمد أحمد قاسم، إعراب الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في شرح ابن عقيل، ط 1. بيروت: 2003م المكتبة العصرية صيدا، ص ص 11-12.

من عيوب الزلل في أقوالهم، فأطنبوا في مكان الإيجاز وأجزوا في موضع الإطناب وغيرها مما عدت من عيوب الفصاحة والبلاغة، إلا أن الرسول ﷺ كان أفصح العرب، مع أنه لم يتكلف القول ولم يقصد تنميته، فالناظر إلى كلامه لا يجد سوى معانٍ هي من إلهام النبوة ورزانة العقل والحكمة وبراعة القصد¹.

وقد أورد الجاحظ وصفاً بليغاً للبلاغة النبوية فيقول: «... وأنا ذاكر بعد هذا فناً آخر من كلامه، وهو الكلام الذي قل حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف وكما قال الله ﷻ: قل يا محمد ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾، فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيب واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي»².

تقع البلاغة النبوية في أعلى طبقات البلاغة الإنسانية، وهي تقع بين إعجاز القرآن وبلاغة البلغاء، فكلامه ﷺ يتميز بحسن الإفهام، وبخلوه من الكلفة والغموض والصنعة، وأيضاً خلوه من الحشو والتكرار والزيادة، مع اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار.

7-جمالية أسلوب الاستفهام:

لا يمكننا الحديث عن أسلوب الاستفهام في الحديث النبوي دون تسليط الضوء على هذا الأسلوب في الشعر الجاهلي، وفي القرآن الكريم، ودوره في العملية التربوية وذلك لإبراز أهمية هذا الأسلوب وبلاغته فأسلوب الاستفهام قيمة جمالية يضيفها على النص لما يتميز به من قوة الظهور وحسن الدلالة.

7-1-أسلوب الاستفهام في الشعر العربي: يُعدّ أسلوب الاستفهام من الأساليب الشائعة

في الشعر الجاهلي، فكثير من القصائد العربية منذ العصر الجاهلي استهلّت به في قصائدها لما في الاستفهام من قوة في الظهور وحسن الدلالة ومن ذلك قول عنتره في معلقته:

هل غادرَ الشعراءَ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدارَ بعدَ تَوَهُمٍ؟

وقول زهير:

أَمْ أَوْفى دِمْنَةً لم تَكَلِّمْ بِحِوْمَانَةِ الدُرَّاجِ فَاَلْمُتَشَلِّمِ؟

¹ - ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، د ط. الجزائر: 2005م، دار الأصاله، ص206.

² - عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط7. مصر: 1418 هـ - 1998م، مكتبة الخانجي ج 2، ص17.

وقول علقمة الفحل في بآئته المشهورة:

وَمَا أَنْتَ؟ أَمْ مَا ذَكَرَهَا؟ رَبْعِيَّةٌ يَخْطُّ لَهَا مِنْ تَرْمَازٍ قَلِيْبٌ

فالاستهلال بأسلوب الاستفهام راجع إلى أن التعبير بالاستفهام عن المعاني البلاغية التي يخرج إليها، أبلغ منه بالإخبار المباشر.

7-2- أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم: يُعدّ الاستفهام من أكثر الأساليب الإنشائية

استعمالاً وأهمية، ويراد به طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن، وله أدوات متعددة تتميز كل واحدة منها بالسؤال عن جهة من جهات الكلام وهو أنسب للاستهلال في اللغة العربية ولهذا فإننا نجد بعض السور القرآنية افتتحت به وهي: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان الآية: 1] ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [النبا الآية: 1]، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ ﴾ [الغاشية الآية: 1] ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح الآية: 1] ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل الآية: 1] ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴾ [الماعون الآية: 1].

وقد عرض المفسرون لأدوات الاستفهام فأظهروا معانيها الأساسية، والفوارق فيما بينها والمعاني البلاغية التي خرجت إليها، وتنبهوا إلى آثار ذلك من جماليات النصوص وصلتها بقرائن المقام والمقال، وأهميتها في الكشف عن أسرار القرآن وخصوصياته في استعماله هذا الأسلوب الذي يكثر فيه، وتتنوع فوائده في التعبير والإثارة والتأثير.

لقد استخدم أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم لقدرته على إيصال المعاني للمخاطبين فالاستفهام القرآني بأسلوبه ومنهجه من أجود الطرائق التعليمية إثارة للانتباه وتوجيها للمتعلمين إلى تلقي العلم، فكان الاستفهام الوارد في القرآن الكريم موضحاً أقوم المسالك للتنبية إلى الحقائق وإثارة الإفهام إليها، وتفتيح الذهن ليتفهم المعاني والحقائق العلمية.

7-3- الاستفهام وأهميته في الحوار: يعدّ الحوار أو المناقشة شكل من أشكال التواصل

اللغوي تنتج به علاقات متشابهة، وبه تبرز تفسيرات توضح ما كان مبهماً، وتقدم معلومات كانت غائبة عن أحد طرفي الحوار، فالحوار أو المحاوراة محاولة كل من طرفي الخطاب أو أحدهما إقناع الآخر بمنطقه في التفكير ووجهة نظره فالحوار إذا منافسة أدواتها اللغة بمختلف صيغها وأساليبها.

ومن شروط الحوار معرفة اللغة المتحاور بها، مع إدراك تام للظروف الاجتماعية والخلفيات المعرفية والفكرية للطرف الثاني، لاكتشاف الطريقة المثلى التي يجب استعمالها في الحوار معه وقد وردت قيمة الحوار في القرآن الكريم واضحة الدلالة لضبط أهدافه وطرائقه

بقوله ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: الآية 125].

استعمل القرآن الكريم أسلوب الاستفهام في الحوار ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: الآية 37] ولهذا فإن الرسول ﷺ قد اعترف بالطرف الآخر، فوظف الحوار في الدعوة، والمتأمل للأحاديث النبوية يجد أن عددا غير قليل منها استعمل فيها الرسول ﷺ الحوار موظفا أساليب تعبيرية مختلفة منها أسلوب الاستفهام، إذ أكثر الرسول ﷺ من الأسئلة بغرض تعليم الصحابة ﷺ، ففي أسئلته ﷺ صورة رائعة لحل المشكلات، وتقويم الأخطاء، وعرض للبدائل، فالحوار يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة «عن اقتناع عقلي وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتا لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك، ولا يحوم حوله وهم»¹، فكان ﷺ يستعمل أسلوب الاستفهام لإثراك الطرف الآخر في الحوار وبذلك يكون عنصرا فعالا في العملية التواصلية، فالحوار أسلوب لغوي، يصل المتحاورين بموضوع الكلام وصلاً عملياً مباشراً ويُرسّخه في أذهانهم ترسيخاً؛ لأنه ضربٌ من الإثارة التي تسترعي الانتباه.

7-4- الاستفهام في حياتنا اليومية: يعد أسلوب الاستفهام من الأساليب التعبيرية التي لا يخلو منها الخطاب بين فئات المجتمع أثناء استعمالها اللغة في العملية التواصلية، كما أن حياتنا إجابة عن استفهامات كثيرة، فنحن حين نخطط لحياتنا ننطلق من استفهام مفاده: ماذا نفعل؟ أو بالأحرى: ماذا علينا أن نحقق من إنجازات في حياتنا؟ وبهذا نضع الأهداف والغايات المرجوة ليأتي استفهام مهم وهو كيف؟ فنجيب عنه بوضع خطط وبرامج وأسس ننطلق منها لتحقيق ما نصبو إليه من أهداف في ضوء إمكاناتنا الاجتماعية والعلمية والثقافية، ومن ثم يفرض علينا سؤال آخر وهو: متى؟ فيتحمم علينا الإجابة عنه باختيار الوقت المناسب لتنفيذ خططنا التي رسمناها، فنرى إن كان الوقت مناسباً لتنفيذها أم ينبغي تأجيل ذلك لوقت المناسب.

وهكذا فإن حياتنا مجموعة من التساؤلات علينا أن نجد لها إجابة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع التخلي عن استعمال هذا الأسلوب في تواصلنا اللغوي مع الآخرين نظرا

¹ - محمد سيد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، د. ط. مصر: 2003م، دار النهضة، ص 3.

لما يحمله من دلالات مختلفة، فنحن نستعمله في حالات الغضب والإنكار والتوبيخ فنقول لشخص ما، لماذا فعلت هذا؟ أو كيف تجرأت على قول هذا؟ ونستعمله في حالة تأنيبنا شخصا ما، فنقول له: ألم نقل لك؟ كما قد نستعمله في معظم الحالات بغرض تحقيق الألفة أثناء التواصل مع الآخرين، فنسألهم عن الصحة أو عن العائلة، وغيرها من الأسئلة المتداولة في مثل هذه المواقف.

7-5- أسلوب الاستفهام واستعماله في العملية التربوية: بعث الله ﷺ رسوله الكريم معلما للبشرية جمعاء قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: الآية 2].

إن نظرة يسيرة إلى ما كانت عليه البشرية قبل مجيء الإسلام وإلى ما آلت إليه بعد ظهوره في الجزيرة العربية يُدرك من خلالها أي معلم كان الرسول ﷺ فقد تخرج على يديه صحابة وتابعون عظماء وأجلاء، فكان الرسول ﷺ يتخير في تعليمه لهم أفضل الأساليب وأحسنها وأوقعها في نفس المخاطب، وأقربها إلى فهمه وأكثرها تثبيتا للعلم في عقله.

ويُعدُّ أسلوب الاستفهام من أهم الأساليب التي كان يستعملها ﷺ لما له من أهمية في العملية التربوية، فالاستفهام يدفع المخاطب إلى الحكم الصحيح ويثير فيه التنبيه إلى الحقائق في غير عوج، فهو مؤثر في المجال التعليمي والتربوي لما يثير من التفاعل الإيجابي بين السائل والمجيب وقد تفتن الصحابة ﷺ إلى قيمة هذا الأسلوب، وأدركوا مكانته في تحصيل العلم ونشره ولهذا نجدهم يسألون الرسول ﷺ عن أمورهم الدينية والدنيوية.

وأما الأسئلة التي طرحها الرسول ﷺ على أصحابه ﷺ أو سألوه عنها فما هي إلا أسئلة اختيارية أو تفكيرية، بهدف لفت الانتباه والاستعداد أو أنها أسئلة تعريفية تهدف إلى معرفة ما يجهلون وما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم¹، فهذا الأسلوب طريقة استنباطية لإخراج المعارف من أفواه المتعلمين حتى تظهر المواهب والقدرات العقلية واكتشاف ما في أذهانهم فالرسول ﷺ كان يُقوم أصحابه بين حين وآخر بهدف تعليمهم وإرشادهم والتأكد من مدى فهمهم واستيعابهم من خلال أسلوب الاستفهام باعتباره أحد أساليب التقويم، الأمر الذي يعكس أهمية التطبيق التربوي لأسلوب التقويم في ميدان التربية والتعليم، لأن هذا الأسلوب يدفع المتعلم إلى المشاركة بالأسئلة والاستماع والفهم والتساؤل عما لا يدركه من حقائق، ويقول الحافظ ابن حجر

¹ - الشاطبي، الموافقات، ج4، د.ط. بيروت: د.ت، دار المعرفة، ص 311.

-رحمه الله- عن السؤال: «هو دعوة إلى امتحان أذهان الطلبة لما يخفى مع بيانه لهم أن يفهموه»¹.

ومن أمثلة ذلك في السنة النبوية: حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أَلَا تُصَفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ فقال: «يُتَمُّونَ الصُّفُوفَ الْأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»². فأسلوب الاستفهام هنا يؤدي إلى إثارة اهتمام المتعلمين ويزيد فاعليتهم ويعمل على تهيئة أذهانهم وتركيز انتباههم ويطرد السامة والملل عنهم مع استدعاء الخبرات السابقة لديهم.

8- أهمية الجمع بين البلاغة والنحو والتداولية:

إن قراءة نص ما قراءة نحوية وبلاغية بمعزل عن الجانب التداولي يحول دون فهم النص فهما دقيقا، كما يحول دون إدراك ما يتوارى وراء القاعدة النحوية من دلالات لا نستطيع ملاحظتها في ظاهر اللفظ، ولا يفسرها إلا السياق، وهذا السياق يتمثل في مناسبة الكلام للمقام. وكان الجرجاني قد أشار إلى أهمية التلاحم بين علوم اللغة، بل ذهب إلى أن النظم هو توحى معاني النحو وهو معدن البلاغة، فلقد نظر إلى بنية اللغة في «مجموعة كلمات لها مدلول معين توظف في سياق كلي يعطيها المعنى أثناء تفاعل علاقاتها اللغوية، أي أن اللغة لا تكتسب مدلولاتها إلا في السياق الكلي الذي يأخذ معناه في واقعه بذاته...»³.

ربط الجرجاني علم المعاني بالنحو، لإبعاد الجفاف والجمود الذي حلّ بالنحو بسبب إبعاد المعاني عنه، لأنّ النحو يهتم بالمبنى والشكل الخارجي وعلم المعاني يهتم بالمعنى، ولا بد من الربط والتكامل الطبيعي بين العلمين لأنهما علمان متكاملان لا يغني أحدهما عن الآخر، بل هما علم واحد، يهدف إلى صون اللسان من اللحن والخطأ في التراكيب.

ولكن جاء بعده السكاكي ففصل بين العلوم في كتابه مفتاح العلوم، ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن هذا الفصل بين العلوم، ولكننا نحاول الوصول إلى فكرة مفادها أنّ الفهم الحقيقي للنص واستنتاجه لا يكون إلا باجتماع هذه العلوم اللغوية وهي البلاغة والنحو والتداولية.

¹ - أحمد ابن علي ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط2. بيروت: 1997م، دار الكتب العلمية، ج1 صص 176- 177.

² - أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، ص270.

³ - صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، د. ط. الجزائر: 1994م، ديوان المطبوعات الجامعية، ص246.

فمثلاً: لا يمكن وصول الرسالة إلى المخاطب إذا لم يكن تركيب الجملة سليماً نحوياً، كما قد يتعدّر على المتلقي فهم الجملة بسبب أنّ تركيبها يحمل دلالة معينة لكنه في الواقع قد يحمل دلالة أخرى أي دلالة متضمنة غير الدلالة الظاهرة، كما يتبين من قولنا لأحد ما: هل بإمكانك أن تعطيني الكتاب؟ فهذا الأسلوب يحمل في ظاهره الحرفي استفهام دال على طلب معرفتنا قدرة السامع على القيام بما نطلبه منه، وهو إعطاؤنا الكتاب، ولكننا في حقيقة الأمر استعملنا هذا التركيب لتحقيق مبدأ التآدب مع المتلقي، فهي صيغة مهذبة للطلب تسمّى في البلاغة استفهاماً طلبياً، أي أنّ الاستفهام يخرج من معناه الحقيقي إلى غرض الطلب، ولهذا يجب أن ندرك العلاقة بين هذه العلوم الثلاثة.

8-1- العلاقة بين علم النحو وعلم البلاغة: البلاغة تتضمن النحو لأنها عبارة عن قول

يحيط بالمعنى، أو ينهي بالمعنى إلى قلب السامع، والنحو أيضاً يقصد إيصال المعنى إلى السامع، فالقول الخطأ نحوياً لا يوصل المعنى المراد إلى المتلقي، ولهذا عرف الجرجاني النظم بأنه مراعاة قوانين النحو وأصوله، فالحدود الفاصلة بين هذين العلمين دقيقة، فكل من النحو والبلاغة يرتبط بالكلام وصحته، وما صح بلاغياً صحّ نحوياً وليس كل ما صحّ نحوياً صح بلاغياً، كما نظر الجرجاني إلى بنية اللغة في مجموعة كلمات لها مدلول معين، توظف في سياق كلي يعطيها المعنى أثناء تفاعل علاقاتها اللغوية.¹

ومما سبق يُستنتج أنّ الجرجاني لم ينظر إلى النحو على أنه منظومة من القواعد المجردة بل نظر إليه على أساس أنّه رسالة إبلاغية جيء بها لإفادة المخاطب (المتلقي) معنى الخطاب. وهذا ما ذهب إليه أحد اللغويين المحدثين إذ يرى أنّ علم المعاني علم مكمل لعلم النحو بقوله: «إذا كانت الشركة في دراسة الجملة قائمة بين علم النحو وعلم المعاني، فإنّ النحو يبدأ بالمفردات وينتهي إلى الجملة الواحدة، على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة وقد يتخطاها إلى علاقاتها بالجمال الأخرى في السياق التي هي فيه...»².

وفي الوقت نفسه يشير إلى وجود فارق من حيث المنطلق بين هذين العلمين، والغاية التي يريد كل منهما الوصول إليها، فالنحو يجعل نقطة البداية هي المبنى للوصول إلى المعنى، أمّا علم المعاني فينطلق من المعنى بحثاً له عن المبنى³، ونستنتج من هذا أنّ البلاغة تشترك مع علم

¹ - صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص 246.

² - تمام حسان، الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. ط. القاهرة: 2000م، عالم الكتب، ص 307.

³ - تمام حسان، الأصول، ص 312.

النحو في (النظم) وهو تركيب الكلام وتأليفه، ويختلفان في كون النحو ينظر إلى النظم من جهة الاستقامة والصحة وفق قوانين العربية، أما البلاغة فتري النظم متعلقا بالحال والمقام.

8-2-علاقة العلمين (البلاغة والنحو) بالتداولية: قبل التطرق إلى الحديث عن العلاقة

بين كل من علم النحو وعلم البلاغة بالتداولية أن نعرّف بالتداولية.

تسعى التداولية إلى دراسة مقدرة مستعملي اللغة بالسياق الملائم لها، وقد جاءت التداولية لتُعنَى بتحليل العلاقة بين النص ومستعملي اللغة، فهي تدرس الجانب التواصلي للغة، بعد ما ظل هذا الجانب مستبعدا من قبل اللسانيين الذين ركزوا في دراساتهم اللغوية على علم التراكيب Syntax وعلم الدلالة Sémantique.

وللتداولية علاقة وطيدة مع علمي النحو والبلاغة، فعلم النحو يهتم بمسائل مرتبطة بالمتكلم ممّا يظهر أثره على البنية نفسها وكذلك السامع، ونص الخطاب، وذلك أنّ اللغة، وهي موضوع علم النحو تقوم على مفاهيم الاستعمال والتداول،¹فالبلاغة والتداولية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي.

لا يرى بعض الدارسين المحدثين فرقا بين البلاغة والتداولية، لأنّ البلاغة تداولية في صميمها بكونها تهتم بممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع²، لذا تعد البلاغة أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة، لأنها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته اللفظية والتركيبية والدلالية، والعلاقات القائمة بينها.

ومما سبق ذكره نستنتج أن نظام اللغة العربية نظام متكامل، قائم على الترابط والانسجام بين مستويات اللغة.

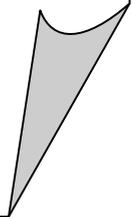
¹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ط1. الجزائر: 2009م، بيت الحكمة ص154.

² - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1. مصر: 1996م، شركة لونجمان العالمية للنشر، ص155.

الفصل الأول

الاستفهام من المنظور

النحوي



سنحاول في هذا الفصل الإجابة عن سؤال مفاده: ما جوانب الخطاب التي تهتم بها الدراسة النحوية في تناولها لأسلوب الاستفهام؟ وهل يهتمّ النحو بجميع أقطاب العملية التواصلية؟ وهل يستطيع التحليل النحوي أن يقف على مضامين نص الحديث النبوي ويكشف عما توحى به من معانٍ؟

قبل التطرّق إلى أهم آليات التحليل النحوي لأدوات الاستفهام في الحديث النبوي، لابد لنا من وقفة موجزة نسعى من ورائها إلى التعريف بأهمية علم النحو.

1- أهمية علم النحو:

كانت الغاية الأساسية من الدراسات النحوية فهم أساليب تأليف الكلام في العربية وبنائه خاصة أساليب التعبير في أي الذكر الحكيم، لكشف وإدراك أسرارها، فالنحو دعامة العلوم العربية فمن يريد تعلم اللغة العربية يعتبر النحو وسيلته، فاللغوي يعتبره سلاحه، والبلاغي لا يستطيع الاستغناء عنه، وعلماء الدين يعتبرونه أداة للدخول إلى العلوم الشرعية والفقهية، ولذا وصفه اللغويون القدماء بأنه قانون اللغة، وميزان تقويمها،¹ وهذا ما دعا أحد المستشرقين إلى القول بأنّ «علم النحو أثر من آثار العقل العربي، لما فيه من دقة في الملاحظة ونشاط في جمع ما تفرق وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره، ويحق للعرب أن يفخروا به»²، ولذا يتطلب النحو جهداً وعناء، لأنه عمل ذهني وذوقي يتطلب معرفة بأساليب الكلام، ونظم الألفاظ أي نسجها في جمل مفيدة في معانيها، مختلفة في بنائها، متباينة في طرائق إسنادها.

2- تعريف الاستفهام:

الاستفهام نمط تركيبى من الجمل الإنشائية الطلبية، فهو طلب العلم عن شيء لم يكن معلوماً أصلاً وهو مشتق من مادة (فهم) وقد عرفه ابن منظور بقوله: «الفهم: معرفتك الشيء بالقلب وفهمت الشيء: عقلته وعرفته، وفهمت فلانا وأفهمته وتفهمّ الكلام: فهمه شيئاً بعد شيء واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء، فأفهمته وفهمته تفهيماً»³.

¹ - محمود فجال، الحديث النبوي في النحو العربي، ط2. الرياض: 1417 هـ - 1997م، أضواء السلف، ص26.

² أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص120.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (فهم).

وقال ابن قتيبة: « واستفهمته: سألته الإفهام¹ فالاستفهام في أصل اللغة هو: طلب الفهم وكذا هو في اصطلاح النحويين « طلب الفهم » أيضا، لكنه عند السيوطي (ت 911 هـ): « طلب الإفهام²»

وهناك من سوى بين الاستخبار والاستفهام، كابن فارس (ت 395 هـ) الذي يقول: «الاستخبار: طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام» ثم يقول: « وذكر ناس أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق قالوا: وذلك أن أولى الحالين الاستخبار، لأنك تستخبر فتجاب بشيء، فربما فهمته، وربما لم تفهمه فإذا سألت ثانية، فأنت مستفهم، تقول: أفهمني ما قلته لي قالوا: والدليل على ذلك أن البارئ - جل ثناؤه - يوصف بالخبر* ولا يوصف بالفهم³».

ويقول في هذا أبو القاسم عمر بن ثابت الثماني (ت 442 هـ): « وإنما يقال: استعلام واستخبار واستفهام إذا وقع ممن لا يعلم، فإن وقع ممن يعلم بما يسأل عنه قيل: تقرير وتوبيخ وتبكيك، وكل ما في القرآن بلفظة الاستفهام، فهو من هذا القسم، لأن الله - جل اسمه - لا يجوز أن يستفهم ولا يستخبر ولا يستعلم، ويجوز أن يوبخ ويقرر، ويبكت⁴».

ومنه، فأسلوب الاستفهام هو أحد أكثر الأساليب الإنشائية استعمالا وأهمية، ويراد به طلب الفهم أو معرفة ما هو خارج الذهن، ويكون الاستفهام بحروف معينة، وأسماء محددة، لكل منها معنى خاص، إضافة إلى المعنى الذي وضعت من أجله وهو الاستفهام. ويخضع استعمال أدوات الاستفهام لأنظمة نحوية حدّتها كتب النحو، والجهل بها يؤدي حتما إلى الوقوع في الخطأ عند تركيب الجملة الاستفهامية، وبالتالي حدوث خلل في العملية التواصلية.

3- أهمية أسلوب الاستفهام:

لأسلوب الاستفهام أهمية بالغة في اللغة العربية، وتكمن أهميته في الدور الذي يؤديه في عملية التواصل بين البشر، ووظيفته التبليغية والحجاجية، وإذا كان معلوما أن التواصل لا

¹ - ابن قتيبة الكوفي الدينوري، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4. مصر: 1382 هـ - 1963م مطبعة السعادة، ص 360.

² - جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ط1. مصر: 1979م، المطبعة الأزهرية، ج1، ص 294. * (الخبر): بضم الخاء. وهو العلم بالشيء

³ - أحمد ابن زكريا ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: محمد الشويمي، د ط. بيروت: 1383 هـ - 1964م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، ص 181.

⁴ - أبو الفتح عثمان ابن جني، اللّمع في العربية، تح: حامد المؤمن، د ط. بغداد: د ت، مطبعة العاني، ص 355.

يتمّ إلا استنادا إلى تخاطب، فإن الاستفهام أبرز أدوات هذا التخاطب، لأنه يجسد دورة التخاطب حيث يتوافر على مرسل ومرسل إليه ورسالة، ولما كان الاستفهام خطابا، تنوعت أغراضه، فقد يكون حقيقيا وقد يكون مجازيا وهو في كل هذا تتغير أشكاله وأغراضه، الأمر الذي جعل النحاة يدرسونه دراسة تحليلية ولهذا كان الاستفهام موضوعا من الموضوعات النحوية المهمة، حيث إنّ من يتصفح المصادر النحوية يجدها تخصص له حيزا كبيرا في طياتها، كما يجدها تزخر بكم هائل من أقوال أوائل النحاة عن أدوات الاستفهام.

4- الاستفهام من منظور النحاة:

لقد كانت علاقة النحو بالبلاغة علاقة وثيقة، إذ كانت كتب النحاة القدامى تضم إلى جانب النحو البلاغة واللغة والأدب والنقد، ومن يرجع إلى كتاب سيبويه يجد إشارات كثيرة، اندرجت فيما بعد تحت اسم البلاغة، ولم يكن النحو في عصر سيبويه مستقلاً عن مسائل علوم العربية وإنما كان جزءاً منها وكتاب سيبويه ليس كتاب نحو فقط، وإنما هو كتاب في علوم العربية، فيه اللغة وفيه النحو والصرف وفيه البلاغة والعروض، كما أن النحو نفسه لم يكن عند سيبويه وأمثاله مقصوراً على الإعراب والبناء وبيان الأوجه المختلفة للفظ من الناحية الإعرابية، وإنما كان علماً يؤدي إلى فهم كلام العرب، وعدم اللحن فيه، ومن يتصفح كتاب سيبويه يجد فيه: (باب اللفظ والمعنى) و(باب ما يكون من اللفظ من الأعراض) و(باب الاستقامة من الكلام والإحالة) و(باب ما يحتمل من الشعر) ومن يرجع إلى أبواب الكتاب سيقف على كلام في البلاغة، ولكنه يختلف عن كلام البلاغيين الذين عرفوا المصطلحات والتقسيمات والحدود فيما بعد، ومن يرجع إلى كتب النحاة القدامى كـ (معاني القرآن للفراء) و (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة وكتاب (الكامل) لأبي العباس المبرد وغيرها سيجد فيها إشارات كثيرة لمسائل دخلت فيما بعد تحت اسم البلاغة، ولهذا وحتى لا يكون هناك تكرار فيما بعد سنذكر في هذا المبحث من اشتهروا بالنحو أكثر من اشتهارهم بالبلاغة.

تتاول النحاة مباحث الاستفهام وخصّوها بالعناية والاهتمام، مع بيان ما لها من أثر في علم المعاني، مثلهم مثل البلاغيين، لأنّ الدراسات اللغوية في بداياتها لم تكن قد فصلت عن بعضها إلا أنّ حديث النحاة كان أكثر تفصيلاً في الأدوات خاصّة في حديثهم عن الهمزة و(هل)، وذلك

لأنّ الهمزة تُستعمل في طلب التصور والتصديق دائماً، أمّا بقيّة الأدوات الأخرى فإنها لا تُستعمل إلا لطلب التصور.

ويقصد بالتصور: إدراك المفرد أي عند التردد في تبيين أحد الشئيين، أمّا طلب التصديق: فهو إدراك النسبة أي إدراك علاقة شيء بآخر، فالنسبة جملة تامّة، وإدراك الجملة يستدعي الكثير من التأمل لا يتطلّبه المفرد، والسؤال عن المفرد (التصور) يكون بتوجيه السؤال نحو طرف واحد في كل الجملة ولا يتوجه نحو الإسناد بين الفعل والفاعل، أو بين المبتدأ والخبر كما هو السؤال عن النسبة (التصديق) الذي يرغب السائل من خلاله معرفة مدى تحقق النسبة بين طرفي الجملة لذلك هو يستفهم عنها، وسمّي بالتصديق لأنه طلب تعيين الثبوت والانتفاء في مقام التردد، ولهذا كان اهتمام البلاغيين بالهمزة و(هل) يفوق اهتمامهم بالأدوات الأخرى.

وكان أول من اهتمّ بالاستفهام وأدواته سيبويه (ت180هـ)، فتحدّث عنها في مواضع جمّة في كتابه وألمّ بها إماماً كبيراً، فهو يفرّق أولاً بين أدوات الاستفهام جميعاً وبين الهمزة، فيرى أنّ أدوات الاستفهام يقبح دخولها على الاسم إذا كان بعده فعل -إلا في الضرورة- ولكن (الهمزة) يصحّ بدون قبح أن تدخل على الاسم وإن كان بعده فعل¹.

ثمّ نجده يورد تعليلاً لصحة دخول (الهمزة) على الاسم، وفي نفس الوقت يعلل قبح دخول بقية أدوات الاستفهام على الاسم واختصاصها بالفعل إذا كان مذكوراً في الجملة، ومعنى هذا أنّ أدوات الاستفهام تختص بالفعل، وهذا هو الأصل في استعمالها غير أنّ الجملة إذا افتقدت الفعل لم تجد هذه الأدوات شيئاً تدخل عليه سوى الاسم، أمّا إذا كان أحد أجزاء الجملة فعلا التصقت به الأداة لأنها تكون في الأصل معه.

وقد حام سيبويه حول خروج الاستفهام عن وضعه واستعماله في غير الاستفهام، فتحدّث عن الاستفهام التوبيخي في (باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل) فيقول: «... وذلك قولك: أتميميا مرة، وقيسيا أخرى فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل وليس يسأل مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ولكنه وبخه بذلك...»².

¹ - عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3. القاهرة: 1408هـ-1988م مكتبة الخانجي، ج1، ص52.

² - سيبويه، الكتاب، ج1، ص172.

أتى الفراء (ت207هـ) ليتناول بعض أشكال الاستفهام المجازي فيذكر منها: الإخبار والتعظيم والتعجب والتوبيخ،¹ فيخالف سيبويه في مسألة خروج (هل) كغيرها من أدوات الاستفهام عن الاستفهام إلى معنى آخر سواء أكان ذلك المعنى التقرير أو الأمر أو غير ذلك²، أمّا سيبويه فيرى بأنّ (هل) تستعمل في الاستفهام فحسب، وقد اتفق مع الفراء حول باقي أدوات الاستفهام. أمّا أبو عبيدة (ت208هـ) فكان مدركاً للتغيير في مدلول الاستفهام وخروجه عن أصل وضعه إلى أغراض بلاغية، ذكر منها الإخبار والتقرير والتوعد والنفي والتهديد والاستفهام بـ (هل) الذي أفاد معنى (قد)³، إلا أن أبو عبيدة لم يكن دقيقاً في إيراد المعنى المجازي للاستفهام مع وجود تداخل المعاني البلاغية للاستفهام لديه، فيصعب على القارئ أن يتبين توجيهه المجازي للشاهد.

وافق الفراء في مخالفته لسيبويه في مسألة خروج (هل) كغيرها من أدوات الاستفهام عن الاستفهام إلى معنى آخر ووافقه فيما عدا ذلك من الأدوات.

ونثر المبرد (ت285هـ) كثيراً من مسائل الاستفهام في كتابيه (الكامل) و(المقتضب) وعرض لبعض الأغراض البلاغية فذكر منها التقرير والتوبيخ والتسوية⁴، ويقول: «وتأتي المصادر في الاستفهام على جهة التقرير وذلك قولك: أقيماً وقد قعد الناس، لم نقل هذا سائلاً ولكن قلت موبخاً منكرًا لما هو عليه، ولولا دلالة الحال على ذلك لم يجز الإضمار لأن الفعل إنما يضمّر إذا دلّ عليه دالٌّ»⁵ والمتناول لكتاب المبرد يجد أنه لا يبتعد عما قال به سيبويه، بل إن جميع آرائه قالها سيبويه قبله.

¹ - يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تح: عبد الفتاح شلبي، د. ط. مصر: د. ت، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج2، ص229.

² - يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، ج9، ص202.

³ - أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: محمد فؤاد سركين، د. ط. القاهرة: د. ت، مكتبة الخانجي، ج1 ص31، 63.

⁴ - محمد بن يزيد المبرد، الكامل، تح: محمد أحمد الدالي، ط3. بيروت: 1418هـ - 1997م، مؤسسة الرسالة ج1 ص277.

⁵ - محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، د. ط. بيروت: 1963م، ج3، عالم الكتب ص138.

أمّا ابن جنّي (ت392هـ) فقد أورد في كتابه (الخصائص) قولاً دقيقاً عن الاستفهام فقال: «ألم تسمع إلى ما جاؤوا به من الأسماء المستفهم بها، كيف أغنى الحرف الواحد* عن الكلام المتناهي في الأبعاد والطول فمن ذلك قولك: كم مالك؟ ألا ترى قد أغناك بذلك عن قولك: عشرة مالك أم عشرون، أم ثلاثون أم مائة، أم ألف، فلو ذهبت تستوعب الأعداد لن تبلغ ذلك أبداً لأنه غير متناه فلما قلت: كم أغنت هذه اللفظة الواحدة عن تلك الإطالة غير المحاط بآخرها ولا المستدركة وكذلك أين...»¹.

كما أشار ابن جنّي إلى خروج الاستفهام عن معناه، وذكر في ذلك شواهد وله فيه إشارات قيمة منها أن الاستفهام الذي يخرج عن معناه يظل ملاحظاً لهذا المعنى ناظراً إليه.

ثم يأتي علي بن عيسى الربعي (ت420هـ) ليتناول الاستفهام من حيث الفروق بين معاني أدواته فيفرق بين متى وأيان، ويرى أنّ الذي يميز الثانية عن الأولى أنّها تستعمل في مواضع التفضيم كقوله **عَلَيْكَ**: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات12]...².

أمّا ابن مالك (ت672هـ) فيرى في كتابه المصباح بأن الاستفهام طلب ارتسام صورة ما في الخارج في الذهن لزم ألا يكون حقيقة إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت عنه فائدة الاستفهام³.

أمّا ابن أم قاسم المرادي (ت749هـ) في كتابه الجني الداني في حروف المعاني فإنه يقتصر على ذكر الهمزة دون غيرها فيقول: «فالهزمة أعمّ وهي أصل أدوات الاستفهام لأصالتها استأثرت بأمور منها تمام التصدير بتقديمها على الفاء والواو وثمّ في نحو قوله **سُبْحَانَ اللَّهِ**: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: الآية 44]، وقوله **سُبْحَانَ اللَّهِ**: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: 21]

*- قد يدل معنى الحرف في هذا السياق على معنى (كلمة) لأنّ المثال المقدم وهو (كم مالك) جاء فيها الاستفهام باسم لا بحرف.

¹ - أبو الفتح عثمان ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط2. لبنان: دت، دار الهدى، بيروت، ج1، ص83.
² - يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، د ط، بيروت: 1420هـ - 2000م، دار الكتب العلمية، ص313.

³ - عبد الرحمن حسن الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط1. بيروت: 1412هـ - 1996 م، دار القلم دمشق والدار الشامية، ص182.

وقوله **وَعَجَلًا**: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُكُمْ بِهِ أَلَّا نَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس51]، وكان الأصل في ذلك تقديم حروف العطف على الهمزة لأنها من الجمل المعطوفة ولكن راعوا أصالة الهمزة في استحقاق التصدير فقَدَموها بخلاف هل وسائر أدوات الاستفهام وهذا مذهب الجمهور...¹، وهذا ما ذهب إليه سيبويه قبله بقرون عدّة.

أمّا ابن هشام الأنصاري (ت761هـ) فيتحدث عن أدوات الاستفهام فيقول: «وجميع أسماء الاستفهام فإنها لطلب التصور لا غير، وأعمّ من الجميع (الهمزة) فإنها مشتركة بين الطالبين...»² ويعني بقوله الطالبين: التصور والتصديق.

5- أدوات الاستفهام:

للاستفهام أدوات متعددة، ومختلفة في تصنيفها أيضاً، حيث تنقسم إلى حروف وأسماء وظروف نوردها على النحو التالي:

5-1- حرفا الاستفهام:

أ- الهمزة: وهي أم باب الاستفهام، ولها صدر الكلام كما لغيرها من أدوات الاستفهام و(الهمزة) في الاستفهام حرف مشترك بمعنى أنه يدخل على الأسماء والأفعال لطلب التصديق والهمزة تقدم على (الفاء) و(الواو) و(ثم) وذلك تحقيقاً لأصلاتها في الوقوع في صدر الجملة وهذا مذهب سيبويه فيها.³

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن سيبويه ذكر أن (الهمزة) تدخل على الشرط والجزاء⁴ وتخرج الهمزة عن الاستفهام إلى معان ذكرها النحويون، وذلك كالإنكار والتسوية والتهكم والاستبطاء، كما أنه يجوز حذف الهمزة لوجود قرينة عليها، وقد تكون هذه القرينة معنوية كالإنكار وسياقه فعلي في الغالب والاستفهام عموماً يكون في سياق فعلي، ولذلك يكون السياق قرينة معنوية على (الهمزة) المحذوفة.

¹ - الحسن بن قاسم المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، ط2. بيروت: 1983م، منشورات دار الأفق، ص3.

² - جمال الدين ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط5. بيروت: 1979م، دار الفكر، ج1، ص423.

³ - سيبويه، الكتاب، ج3، ص187.

⁴ - المصدر نفسه، ج3، ص81.

- ب- (هل): وهو حرف استفهام يدخل على الأسماء والأفعال لطلب التصديق الموجب لا غير ولا يستفهم به عن مفرد، أي لا يليه الاسم في جملة فعلية، فلا يقال: هل زيد أكرمت لأنّ تقديم الاسم يشعر بحصول التصديق بنفس النسبة، وتختلف (هل) عن (الهمزة) فيما يلي:
- 1- يطلب بـ (الهمزة) تعيين أحد أمرين وذلك بالإتيان بـ (أم) المتصلة أما (هل) فلا.
 - 2- تدخل (الهمزة) على النفي أما (هل) فلا تدخل على النفي.
 - 3- (الهمزة) ترد للإنكار والتوبيخ والتعجب، بخلاف (هل).
 - 4- (هل) يراد بالاستفهام بها النفي، نحو قولك هل يقدر على هذا غيري، أي لا يقدر.
 - 5- أنّ (الهمزة) تنصدر الجملة وتتقدم على فاء العطف، و واوه، وثم، ذلك خلافاً لـ (هل).
 - 6- (الهمزة) تعاد بعد (أم) و (هل) يجوز أن تعاد كما يجوز أن لا تعاد.
 - 7- (الهمزة) تدخل على (إن) و (هل) لا تدخل لعدم اتزان اللفظ.
 - 8- (الهمزة) قد يليها اسم بعده فعل أما (هل) فإنه لا يتقدم الاسم بعدها على الفعل إلا في الشعر.
 - 9- عدم الدخول على الشرط والتوكيد لأنه موضع يختص بدخول (الهمزة).
- كما أنه قد تفردت (هل) عن غيرها من الأدوات بأنها:
- تخلص المضارع للاستقبال: وبسبب دلالتها على الاستقبال لا يجوز دخولها على ما يدل على الاستقبال كالتسوية و « لن ».
 - أن تأتي بمعنى (قد) وذلك كقوله ﷺ: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان الآية: 1] و يقول سيبويه في ذلك « وكذلك هل تكون بمعنى قد »¹
 - وقد تأتي أيضا بمعنى (إن) ومنه قوله ﷺ: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: الآية 5].
 - وتكون بمعنى (ما) نحو قوله ﷺ: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: الآية 60].
 - وتكون للأمر كما في قوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ﴾ [المائدة: الآية 91].
 - وتجيء (هل) حاملة معنى التمني، وهو معنى ذكره البلاغيون والمفسرون.

¹ - سيبويه، الكتاب، ج3، ص189.

² - ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، د ط. بيروت: 1970م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص107.

- وقد تقع (هل) موقع (الهمزة) بأن:
- يؤتى بها في المعادلة عوضاً عن (الهمزة) وممن جَوَزَ هذا الاستعمال بن مالك ومثّل لذلك بقوله عنه لجابر الأنصاري: «هَلْ تَزَوَّجْتَ بَكْرًا أَمْ ثِيًّا؟»¹.
- الدلالة على النفي: من خصائص (هل) أنها تستعمل للنفي حتى جاز أن يجيء بعدها (إلا) قصداً للإيجاب كقوله عنه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن الآية: 60] أي ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، كما نستطيع أن نقول «الإلاه مع الله؟» ونقصد النفي.
- 2-5- ظروف الاستفهام:** يعنى بظروف الاستفهام الظروف التي يسأل بها عن زمن الحدث أو مكانه، وهي على النحو التالي:

1-(أين): ظرف يستعمل للسؤال عن المكان وهو اسم، وقد تدخل عليه (ما) فتكون زائدة وذلك للتوكيد وفيها قال سيبويه: «أين يستفهم بها عن المكان»² وتكون بمنزلة (حيث) كقولك: «أين أنزل، أين أبيت؟»،³ وهي تشبه «متى» في المواصفات فهي ظرف مبهم غير متمكن في الاسمية.*

2-(أى): وهي ظرف يسأل بها عن المكان أيضاً وتأتي على نوعين استفهامية وشرطية وتأتي بمعنى (من أين) مثلما وردت في قوله عنه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: جزء من الآية 37].

وتكون بمعنى (كيف) فتكون كناية عن الحال، ومثّل ذلك ما ورد أيضاً في قوله عنه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: جزء من الآية 259].

¹ - جمال الدين ابن مالك، شواهد التوضيح والتصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، د ط. القاهرة: د ت، مكتبة دار العروبة، ص 209.

² - سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 220.

³ - أبو القاسم الزجاجي، حروف المعاني، تح: علي الحمد، ط 1. بيروت: 1984م، مؤسسة الرسالة، ص 34.

* - هذا رأي سيبويه وذلك بقوله: «شبهت بالأصوات، وبما ليس باسم، ولا ظرف» الكتاب ج 3، ص 285.

وقد ذكر لها سببويه أنها تأتي بمعنى (أين)¹ بينما رأى التفتزاني بأنها تأتي بمعنى (كيف) و(من أين) وبمثل ذلك قال العكبري والزجاجي والزرركشي.²

3- (أيان) و(متى): هما ظرفان يستفهم بهما عن الزمان المستقبل وقد ذكر سببويه أن (أيان) كـ (متى) ويبقى الفرق بينهما أن: متى يستفهم بها عن كل زمان و(أيان) يستفهم بها عن المستقبل فقط كما تستعمل (متى) للشرط.

4- (من): وهو اسم استفهام يستفهم به عن العاقل، وتأتي على أربعة أوجه: شرطية واستفهامية ونكرة موصوفة واسما موصولاً، ومن تكون للاستفهام عن العاقل وتعيينه باسم أو صفة.

وفي (من) خلاف كثير بين النحاة وهذا الخلاف يكمن في المستفهم عنه، إن كان نكرة أو معرفة فإذا استفهم بها عن معرفة ففيه خلاف حيث يقول سببويه: «اعلم أن أهل الحجاز يقولون: إذا قال الرجل: رأيت زيدا، قالوا من زيدا؟ وإذا قال مررت بزید قالوا: من زيد؟، وإذا قالوا: هذا عبد الله قالوا: من عبد الله؟ وأما بنو تميم فيرفعون على كل حال وهو أقيس القولين»³ وذلك يعني أن الحجازيين يجرّون (من) على الحكاية، وهذا إجراء الاسم بعد الاسم المتقدم ذكره، وأما بنو تميم فيرفعونه وقد وافقهم سببويه الرأي وأما إذا استفهم بـ (من) عن نكرة فعندها ينظر إلى الوقف يقول سببويه: «ففي حالة الوقف فالرفع واوا والنصب ألفا والجر ياء فإذا قلت: جاءني رجل قلت منو؟ وإذا قال: رأيت رجلاً قلت منا؟ وإذا قال مررت برجل قلت مني؟ وإن تثبت تثبت العلاقة... ولا يكون ذلك في معرفة»⁴.

وقد توصل (من) بـ (ذا) وعندها تعامل ككثلة واحدة، وأما اعتبار (من) استفهامية، و(ذا) موصولة أو زائدة فهو رأي منسوب للكوفيين⁵.

5- (ما): اسم استفهام يقع على جميع الأجناس وهي بمعنى أي شيء، وهي تدل على الاستفهام كما تدل على غير الاستفهام وهي في الاستفهام تدل على غير العاقل وعلى صفات

¹ - سببويه، الكتاب، ج2، ص 312.

² - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ط3. بيروت: 1980، دار الفكر للطباعة والنشر، ج4، ص 250.

³ - سببويه، الكتاب، ج2، ص 413.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص 408.

⁵ - ابن هشام، مغني اللبيب، ص 432.

العاقل، ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17]، وذهب الفراء إلى القول بأن العرب قد استعملوا (ما) للعاقل على قلة و لم يشع الاستعمال¹.

ويتفق النحاة على أن وقوع (ما) الاستفهامية موقع الجر يذهب الألف منها وذلك نحو (إلام) و(فيم)، و(بم)، و(لم)، ومثل ذلك في قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبا: 1].

وتوصل (ما) بـ (ذا)، وقد اختلف العلماء في أمر (ماذا) فمنهم من يرى:

- بأنها مركبة من (ما) للاستفهام و(ذا) اسم إشارة.
- وآخرون يروا بأن (ما) للاستفهام و(ذا) اسما موصولا.
- ويرى البعض أنّ (ما) للاستفهام و(ذا) زائدة.
- بينما يرى البعض الآخر أنّ المجموع (ماذا) اسما واحدا المعنى منه استفهام.
- وفريق يقول بأن المجموع (ماذا) اسما واحدا بمعنى الذي.

6- (كم): يؤتى بها للكناية عن العدد المبهم، وتقع على القليل منه والكثير والدليل

على اسميتها دخول حرف الجر عليها فتقول: بكم مررت؟ وقد تكون مضافا أو مضافا إليه. وتأتي على وجهين استفهامية بمعنى أي عدد؟ وخبرية بمعنى كثير، وقد اتفق النحاة على أنها اسم وتختلف الخبرية عن الاستفهامية في خمسة أمور وهي:

- الخبرية تحتل التصديق والتكذيب وذلك بخلاف الاستفهامية.
- لا يقتضي المتكلم في الخبرية جوابا، أما المتكلم بالاستفهامية فيقتضي جوابا، لأنها قائمة على الحوار بين السامع والمتكلم.
- تمييز (كم) الخبرية مفرد أو مجموع نحو: كم قلم اشتريت ولا يكون تمييز الاستفهامية إلا مفردا وهذه النقطة الأخيرة من أهم نقاط الفرق بين الخبرية والاستفهامية.
- تمييز الخبرية واجب الخفض وتمييز الاستفهامية منصوب.
- الاسم المبدل من الخبرية لا يقترن بالهمزة بخلاف المبدل من الاستفهامية.
- قد تخرج (كم) الاستفهامية عن معنى الاستفهام إلى معان أخرى تفهم من السياق والتشابه بين الخبرية والاستفهامية كبير، وذلك من حيث اللفظ والتركيب وفيهما التباس كبيرة، ويذهب قطبي الطاهر إلى القول بأن دلالة (كم) على الخبر دلالة مجازية والأصل دلالتها على الاستفهام².

¹ - الفراء، معاني القرآن، ج1، ص 102.

² - قطبي الطاهر، الاستفهام النحوي، د ط. الجزائر: 1992م، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 105.

7- (كيف): ويستفهم بها عن الحال، والاستفهام بـ (كيف) إما أن يكون حقيقياً نحو: كيف زيد؟ أو مجازياً في مثل قوله ﷺ: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ فإنه أخرج مخرج التعجب وهي للسؤال عن الحال، قال سيبويه « وكيف على أي حال؟ »¹.

8- (أي): اسم استفهام وهي تأتي على خمسة أوجه على النحو الآتي:

- أن يأتي بمعنى الشرط وذلك نحو قوله ﷺ: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: جزء من الآية 110].
- ويأتي استفهاماً وذلك نحو قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: الآية 124].
- ويأتي كذلك بمعنى الاسم الموصول نحو قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ لَنْتَرَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 69].

- أن تكون دالة على معنى الكمال فتقع صفة للنكرة، نحو قولك: « زيد رجل أي رجل ».
- أن تكون وصلة إلى نداء ما فيه (أل) نحو قولك « يا أيها الرجل أقبل ».
- وفي إعرابها خلاف بين النحويين قيل: « ترفع على الابتداء إذا لم يعمل فيها شيء وما بعدها خبرها، وقيل أيضاً: تنصب بالفعل الذي بعدها نحو أيهم ضربت وكذلك إذا أفردت نحو: أيا أكرمت »² و(أي) الاستفهامية لا يعمل فيها ما قبلها من الأفعال لأن الاستفهام له صدر الكلام.

كانت هذه لمحة موجزة عن أدوات الاستفهام، وموضوع الاستفهام موضوع واسع، قد أشبعه البلاغيون والنحويون بحثاً وتقليباً، لهذا لم نطل الكلام عنه في الجانب النظري، ولكننا من خلال كتابتنا لهذا المبحث عرفنا أن ذكر المصطلحات البلاغية في عصر سيبويه لم يكن ذا شأن خطير إذ أن العلوم والفنون لم تكن قد تحددت بعد أو دخلت في دور التصنيف والتقسيم ووضع المصطلحات عنواناً على كل قسم، بل كانت متداخلة، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن سيبويه قد أسهم إسهاماً فعالاً في وضع الأساس وإقامة البناء للبيان العربي، إذ كان النحو عنده يشمل تأليف الجمل ونظمها وسر تركيبها، فضلاً عن كونه عرض لبعض الخصائص الأسلوبية التي عني بها

¹ - سيبويه، الكتاب، ج4، ص 233.

² - ابن هشام، مغني اللبيب، ص 107.

فيما بعد علم المعاني مثل: التقديم والتأخير، والحذف والذكر وغيرها، كما نشير في خاتمة العرض إلى أن:

- أكثر الأدوات حذفاً في الاستفهام هي (الهمزة).
- (الهمزة) أوسع استعمالاً وتصرفاً في الاستفهام من بقية الأدوات، ولذلك اختصت بأحكام لا تكون في غيرها.
- وجود استفهام نميزه دون وجود أدوات تدل عليه، فهو استفهام محذوف الأداة، يُفهم إذا دلت عليه قرينة كالتنغيم أو السياق.
- الحديث عن (الهمزة) و(هل) عند النحويين وأكثر تفصيلاً من الحديث عن بقية أدوات الاستفهام .
- قصر سيبويه وابن جني غرض التقرير على همزة الاستفهام دون (هل)، خلافاً لما يراه عدد قليل من العلماء، إذ قد تخرج (هل) عندهم إلى غرض التقرير.
- ولا شك أنّ ما قدّمه الدارسون القدماء يمكن أن يكون إطاراً عاماً يساعدنا على تفهم الدلالة الخاصة بالسياق في كل تركيب استفهامي.

6-دراسة أنماط الجملة الاستفهامية في الحديث النبوي:

ورد أسلوب الاستفهام في الحديث النبوي بصور متعددة وأدوات مختلفة، وبنسبة كبيرة مقارنة بالأساليب الإنشائية الأخرى، ومجال التطبيق في هذا المبحث يكمن في رصد أدوات الاستفهام الواردة مع بيان الأنماط المختلفة التي وردت عليها، ونبدأ بأكثر الأدوات وروداً في الحديث النبوي وهي:

6-1- الهمزة: هي أكثر الأدوات استعمالاً في الاستفهام النبوي وأغلبها دورانا ويعود سبب ذلك إلى أنّها تستعمل للاستفهام عن مضمون الجملة أي: عن صحة نسبة المسند إلى المسند إليه، وهو ما يسمى بالتصديق، كما تستعمل لطلب التعيين وهو ما يسمى بالتصور، وهذا من خصائص (الهمزة) في حين تختص الأداة (هل) عند أكثر النحاة بالاستفهام عن مضمون الجملة فقط¹، يضاف إلى ذلك بعض المعاني المجازية تكاد تتفرد بها (الهمزة) ومنها: التسوية

¹ - قيس إسماعيل الأوسي، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د ط. بغداد: 1988م، بيت الحكمة للنشر والتوزيع ص118.

والتقرير ولاسيما إذا علمنا أن التقرير هو أكثر المعاني المجازية التي يخرج إليها الاستفهام في الحديث النبوي.

6-1-1-1- ورودها مع الجملة الفعلية:

أ- ورودها مع الفعل الماضي: وردت (الهمزة) مع الجملة الفعلية كثيرا في الاستفهام الصادر عن رسول الله ﷺ ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر به رجل فقال: يا رسول الله إني لأحبُّ هذا، فقال له النبي ﷺ: «أأعلمته؟» قال: لا، قال: «أعلمته» فالحق، فقال: إني أحبُّك في الله، فقال: أحبُّك الذي أحببتني له¹.

كثيرا ما يتلطف المتكلم بالمخاطب فيوجه له الأمر بأسلوب الاستفهام، والأمر يشمل كل ما تستعمل له صيغة الأمر من تكليف، أو نصيحة، أو موعظة، أو إرشاد، أو دعاء أو التماس، أو غير ذلك، والرسول ﷺ في هذا الحديث استعمل الهمزة للاستفهام بغرض إرشاد الصحابي إلى إعلام من يحب أنه يحبه، لما في ذلك من غاية نبيلة وهي نشر المودة بين أفراد المجتمع.

وأیضا عن أنس رضي الله عنه قال: كان ابنٌ لأبي طلحة رضي الله عنه يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي: هو أسكن ما كان فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «أعرستم الليلة؟» قال: نعم، قال: «اللهم بارك لهما» فولدت غلاماً فقال لي أبو طلحة رضي الله عنه: احملة حتى تأتي به النبي ﷺ وبعث معه بتمرات، فقال: «أمعه شيء؟» قال: نعم تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في الصبي ثم حنكه وسماه عبد الله².

ولا يخفى هنا أن أسلوب الاستفهام من سياق هذا الحديث لم يأت لمجرد الاستفهام فحسب بل خرج عنه لغرض التعجب، ولتركيب الجملة الاستفهامية دور مهم في إبراز الدلالة، حيث استفهم النبي ﷺ عن الفعل لأنه محل الاهتمام، ولأنه أراد أن يدعو لهما، ففي رواية للبخاري: قال بن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن، يعني: من أولاد عبد الله المولود.

¹ - رياض الصالحين، ص 120.

² - المصدر نفسه، ص 27.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، فصبحنا القوم على مياههم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، وطعنته برمحي حتى قتلتها، فلما قدمنا المدينة، بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟»، قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً، فقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم¹.

دخلت الهمزة في هذه الحديث على الفعل، ودخولها على الفعل هو الأصل عند سيبويه حيث يقول: « وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل، إلا أنهم توسعوا فابتدعوا بعدها الأسماء والأصل غير ذلك»² كما نلاحظ استعمال الهمزة للتقرير والإنكار، فالرسول ﷺ أنكر على أسامة قتله للرجل الذي قال: (لا إله إلا الله)، كما نلاحظ تكرار أسلوب الاستفهام في هذا الحديث فالرسول يقوم بتكرار النداء أو السؤال أو العبارة، إذا تطلب المقام ذلك، بغرض ترسيخ المبادئ في العقول، لأن درجة الفهم عند المتلقين تتفاوت وبالتكرار يتمكن الجميع من الاسيعاب والعمل بما قيل لهم.

ب- ورودها مع الفعل المضارع: وردت (الهمزة) كثيراً مع الفعل المضارع في الأحاديث النبوية ومن الشواهد على ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: الآية 4] ثم قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا. تَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»³.

خرج أسلوب الاستفهام في هذا الحديث من معناه الأصلي إلى غرضين بلاغيين هما التشويق والإخبار.

وأيضا من الشواهد على مجيء (الهمزة) مع الفعل المضارع ما روي عن أبي محمد سهل بن أبي حنمة الأنصاري رضي الله عنه قال: انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة ابن مسعود رضي الله عنه إلى خيبر وهي يومئذ صلح، فنفرقا، فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشخط* في دمه قتيلاً فدفعته

¹ - رياض الصالحين، ص123.

² - سيبويه، الكتاب، ج1، ص99.

³ - رياض الصالحين، ص126.

*- يتشخط: أي يتخبط فيه، ويضطرب، ويتمرغ.

ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَاَنْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ وَمُحِبِّصَةُ وَحَوِيصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ رضي الله عنهما إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ: «كَبْرٌ كَبْرٌ» وَهُوَ أَحَدَثُ الْقَوْمِ، فَسَكَتَ فَتَكَلَّمَا، فَقَالَ: «أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ؟»¹.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ هَذَا وَشَرِبَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرْحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»².

عبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل المضارع بعد (الهمزة) لكونه يسأل عن معرفتهم في تلك الحال وهذا لكي يصحح لهم مفهوم كلمة المفلس، فأسلوب الاستفهام هنا خرج من معناه الأصلي إلى معنى آخر وهو تحديد المفاهيم.

ت-ورودها مع الاسم: وردت الهمزة مع الجملة الاسمية في أحاديث عدة ومن ذلك ما ورد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا كَانَ لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتُهُ مِثْلَ هَذَا؟» فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فَارْجِعْهُ»³.

في تقديم المفعول به على الفعل دلالة على ما يقصده الرسول صلى الله عليه وسلم من لفت النظر إلى ما يريد أُولًا ليتبعه بعد ذلك بالأمر وهو (فارجعه)، والاستفهام في هذا الحديث يدخل في دائرة التقرير والإنكار، حيث ينكر الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الصحابي التمييز بين أبنائه في الهبات فهو استفهام إنكاري.

ث-ورودها مع حروف الجر: وردت (الهمزة) مع حروف الجر في الأحاديث النبوية ومن الشواهد على ذلك الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبه رضي الله عنه قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَسِيرٍ، فَقَالَ لِي: «أَمَعَكَ مَاءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَنَزَلَ عَن رَاحِلَتِهِ فَمَشَى حَتَّى تَوَارَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ ثُمَّ جَاءَ فَأَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ، فَعَسَلَ وَجْهَهُ وَعَلَيْهِ جَبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ

¹ - رياض الصالحين، ص112.

² - المصدر نفسه، ص80.

³ - نفسه، ص423.

أَنْ يُخْرِجَ ذِرَاعِيَهُ مِنْهَا حَتَّى أُخْرِجَهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْجُبَّةِ، فَغَسَلَ ذِرَاعِيَهُ وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ ثُمَّ أَهْوَيْتَ لِأَنْزَعِ خَفِيَّهُ فَقَالَ: «دَعَهُمَا فَإِنِ ادْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ» وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا¹.

دخلت (الهمزة) هنا على حرف الجر*، وهو من باب تحقيق أصلتها في الوقوع في صدر الجملة وهو موضع إجماع عند العلماء، والاستفهام هنا يحمل دلالة إضافية وهي التلطف في الطلب، فقد كان من الممكن أن يأمر الرسول ﷺ الصحابي بإحضار الماء ولكنه ﷺ لم يشأ ذلك، كونه ﷺ مربيا للأمة الإسلامية فلم يستغل سلطته الدينية أو حب الصحابة له ليفرض أوامره في مثل هذه الأمور.

ج- دخولها على الجملة المنفية:

1- الاستفهام بـ (أليس): دخلت همزة الاستفهام على الجملة المنفية بـ (ليس) لنفي التقرير بما بعد النفي وهذا ما تنفرد به (الهمزة) عن (هل)، ويرى علماء اللغة أنّ (ليس) قبل دخول همزة الاستفهام عليها تعني نفي مضمون الجملة في الحال، فقد رجح ابن الحاجب أن تكون لنفي مضمون الجملة مطلقا حالا كان أو غيره، وإذا دخلت عليها همزة الاستفهام فأكثرهم يرى أنّها نفي التقرير بعد النفي أما الزمخشري فيرى أنّها في الحقيقة للإنكار أي الإنكار للنفي وإنكار النفي عائد به إلى الإثبات والوجوب².

ومن شواهد ذلك ما رواه أبو ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه أنّ ناساً قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلُّون كما نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال ﷺ: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟ إِنْ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»³.

وعن أبي بكر بن نافع بن الحارث رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو

¹ - رياض الصالحين، ص 205.

* - «أمعك ماء؟» (مع) ظرف وليس حرف جر، ينظر في كتاب مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري.

² - عبد الله محمد سعيد، أساليب الطلب في الحديث النبوي، دراسة بيانية في الموطأ، د ط. القاهرة: د ت، دار الثقافة

للنشر والتوزيع، ص 79.

³ - رياض الصالحين، ص 45.

الْقَعْدَةُ وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمِ، وَرَجَبِ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَيِ وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ الْحَرَامُ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَقُونُ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مِنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»¹.

ورد أسلوب الاستفهام بـ (أليس) لطلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم، وهذا النوع من الاستفهام هو إنشاء لفظاً ومعنى؛ فهو إنشاء من حيث اللفظ، لأنه على صورة الاستفهام والإنشاء من أقسام الإنشاء، وهي إنشاء من حيث المعنى؛ لأن المقصود من العبارة حمل المخاطب على الإقرار، وهذا النوع من الاستفهام يحتاج إلى جواب بـ (بلى)، وهذا ما لمسناه من خلال الحديث.

2- الاستفهام بـ (ألا): اختلف العلماء في (ألا) فجعلها ابن الحاجب مركبة من همزة الإنكار وحرف النفي وركب الحرفان لإفادة الإثبات والتحقيق فصارت بمعنى (إن)²، ومن شواهد ذلك في الحديث النبوي الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنَ لَيْنٍ سَهْلٍ»³.

وإذا كان معنى (ألا) التمني فإن همزة لا تغير من عمل (لا) وفي هذا اختلاف فالشجري يقول بالرأي السابق وذلك حسب رأيه «لأنه إذا عرض عليك النزول، فقال: ألا تنزل فقد أخبر بأنه يجب نزولك عنده وأدخله قوم في الاستفهام، لأن لفظه كلفظه ولو كان استفهاماً لم يكن المخاطب به مكرماً لمن خاطبه، ولا موجب عليه بذلك شكراً»⁴، ويعترض على هذا قطبي

¹ - رياض الصالحين، ص 68.

² - قطبي الطاهر، الاستفهام النحوي، ص 17.

³ - رياض الصالحين، ص 186.

⁴ - قطبي الطاهر، الاستفهام النحوي، ص 17-18.

الظاهر فيقول بأنّ «المعروف أن كل إنشاء يؤول بخبر ويستلزمه، لكن الاستلزام لا يخرج الإنشاء من إنشائيته ... فالخبر الذي يستلزمه الأسلوب الإنشائي ليس مقصودا ولا منظورا إليه وإنما ينظر إلى الأسلوب ذاته»¹.

وتفيد (ألا) العرض والتحضيض، فهما يجريان وفق أسلوب الاستفهام لأنهما منه، فدالتهما على العرض والتحضيض من قبيل المعاني البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام.

ومن الشواهد على هذا الحديث الذي رواه أبي بكرة نُفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان مُتَكِنًا فَجَلَسَ فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت،² أما (ألا) في قوله ﷺ «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» فهي حرف تنبيه.

وعن أبي سعيد رافع بن المعلّى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟» فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ: لأَعَلِّمُنَا أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»³.

لا يسأل الرسول ﷺ الصحابة الإذن لكي يعلمهم ولكنه يحثهم ويشوقهم للمعرفة لذلك استعمل الرسول ﷺ هذه الأداة الاستفهامية في الاستفهام للتشويق، فالاستفهام في هذا السياق خرج عن دلالاته الأصلية إلى غرض التشويق.

ومن ذلك أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أُدَلِّكُمُ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بلى يا رسول الله، قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ»⁴.

وأیضا عن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا

¹ - قطبي الطاهر، الاستفهام النحوي، ص18.

² - رياض الصالحين، ص108.

³ - المصدر نفسه، ص269.

⁴ - نفسه، ص273.

رسول الله فعَلَمَ نَبَايَعُكَ؟ قال: «على أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَتَطِيعُوا اللَّهَ» وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيكَ النَّفْرَ يَسْقُطُ سَوْطَ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ،¹ أفاد الاستفهام هنا الحث والحض على المبايعة.

2- الاستفهام بـ (أما): يرى علماء اللغة أن (أما) حرف استفتاح بمنزلة (ألا) وإذا وقعت (أن) بعد (أما) كسرت همزتها كما تكسر بعد (ألا) الاستفاحية.

ومن ذلك قوله ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟»².

وردت (أما) في هذا السياق بمعنى التحقيق والتثبيت، فالسائل في هذا المقام وهو الرسول ﷺ لا يريد جوابا بل يريد أن يخبر فاطمة (رضي الله عنها) أنها من أهل الجنة كما يريد أن ينتزع منها إقرارا برغبتها في ذلك واعترافا.

ومن ذلك أيضا الحديث الذي رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأْبَايَعُكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ فَقَبَضْتُ يَدِي، فَقَالَ ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ فَقَالَ ﷺ: «تَشْتَرِطُ مَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنْ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»³.

هذا النوع من الاستفهام الوارد في الحديث من الاستفهام التقريري، وهو إنشاء من حيث اللفظ خبر من حيث المعنى، إنشاء من حيث اللفظ لأن صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء وخبر من حيث المعنى لأن معناه تثبيت الخبر وتحقيقه، ففوله (أما علمت؟) يقصد بها (قد علمت).

3- الاستفهام بـ (أرأيت): ورد فعل (أرأيت) مع الهمزة كثيرا في الأحاديث النبوية ويرى علماء اللغة أن (أرأيت) تكون للاستفهام بمعنى (أخبرني) وتكون للتعجب، وتكون للتبويه أيضا.

¹ - رياض الصالحين، ص162.

² - المصدر نفسه، ص197.

³ - نفسه، ص205.

وذهب الزركشي إلى أن الفعل (رأى) إذا دخلت عليه همزة الاستفهام امتنع أن يكون من رؤية البصر والقلب وصار بمعنى أخبرني، ومنهم من ذهب إلى أن (أرأيت) اسم فعل أمر واشترطوا أن يعقبه استفهام ظاهرا كان أم مقدرًا¹.

ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا»².

الظاهر أن الاستفهام في هذا الحديث للتبنيح والتقرير، فالاستفهام الوارد في هذا الحديث كان لتقرير الحجة.

4- ورود الهمزة مع حرف العطف: وردت (الهمزة) مع حرف العطف في الحديث الذي رواه أبو فراس ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل الصفة* رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته بوضوئه وحاجته، فقال: «سَلِّني» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قلت هو ذلك قال: «فَأَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكُثْرَةِ السُّجُودِ»³.

الأصل تقديم حرف العطف على الهمزة كما تقدم على غيرها من أدوات الاستفهام نحو قوله سُبْحَانَ اللَّهِ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: الآية 101] ولكن في هذا الحديث خصت الهمزة بتقديمها على حرف العطف وذلك لأصالتها.

مما سبق نلاحظ أن الهمزة قد دخلت على الاسم والفعل والحرف، وقد تصدرت الجملة في جميع مواضعها.

6-2- الاستفهام ب (ما): كثر استعمال (ما) الاستفهامية في الأحاديث النبوية وقد وردت مع الجملة الفعلية والجملة الاسمية على السواء.

أ- ورود (ما) مع الجملة الفعلية: وردت (ما) مع الجملة الفعلية ومع الفعل الماضي لتفيد الإنكار ومن الشواهد على ذلك الحديث الذي رواه أبو العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن

¹ - ابن هشام، مغني اللبيب، ص 240

² - رياض الصالحين، ص 275.

* - أهل الصفة: هم فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة.

³ - رياض الصالحين، ص 45.

رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حِينَ أُشْرْتُ إِلَيْكَ؟» فقال أبو بكرٍ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ¹.

فقد أنكر الرسول ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه حين امتنع عن الصلاة بالناس وقد أشار له بأن يصلي، فقال له: (ما منعك؟) وفي نفس الحديث وردت بصيغة (مالكم) لتفديد الإنكار والتوبيخ والتعجب من عمل الصحابة رضي الله عنهم حين بدؤوا بالتصفيق أثناء الصلاة.

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟» قال: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»².

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» فَزَلَّتْ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: الآية 64]³.

ب- ورود (ما) في الجملة الاسمية: وقد يرد استعمالها مع الجملة الاسمية فيليها الاسم كثيراً وسبب ذلك كونها للاستفهام عن حقيقة الشيء وماهيته ومن شواهد ذلك ما ورد عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ على النبي ﷺ فقال لرجلٍ عنده جالس: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟» فقال: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟» فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»⁴.

استعمل الرسول ﷺ استفهاماً يبدو في ظاهره استشكل واسترشاد ولكن الغرض منه التوجيه والإرشاد وتصحيح المفاهيم، وأيضاً وردت بتركيب (ما هذا) لتفديد الإنكار والتعجب ومن شواهد ما رواه أنس رضي الله عنه قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَيْنِ

¹ - رياض الصالحين، ص 87.

² - المصدر نفسه، ص 116.

³ - نفسه، ص 116.

⁴ - نفسه، ص 87.

فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «حلوهُ، ليُصلَّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقُد»¹.

والسؤال هنا ليس لمعرفة ماهية الحبل وإنما السؤال لإنكار جعل الحبل في المسجد ويتضح ذلك في قوله: «حلوهُ ليُصلَّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقُد».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: مرَّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالجُ خصاً لنا فقال: «ما هذا؟» فقلنا: قد وهى فحنَّ نصلحُه، فقال: «ما أرى الأمر إلاَّ أعجلَ من ذلك»².

كما وردت (ما) مع اسم الإشارة (ذاك) فكانت بهذه الصيغة (ما ذاك) ومن شواهد ذلك الحديث الذي روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟» فقالوا: يُصلُّون كما نُصلي ويصومون كما نَصوم، ويتصدقون ولا نصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلاَّ من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبحون، وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»³.

وعن أبي ربيعي حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه الكاتب أحد كتّاب رسول الله ﷺ قال: قلتُ نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلتُ: يا رسول الله نكون عندك تُذكرنا بالنار والجنة كأننا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرفكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»⁴.

¹ - رياض الصالحين، ص 56.

² - المصدر نفسه، ص 147.

³ - نفسه، ص 171.

⁴ - نفسه، ص 59.

الاستفهام الوارد في هذا الحديث استفهام حقيقي، لأن الرسول ﷺ يستفهم الصحابي الجليل لمعرفة ما يقصده من قوله: (نافق حنظلة) وهذا ينطبق على الحديث الذي سبقه إذ يستفهم الرسول ﷺ الصحابة عن المراد من قولهم: (ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنُورِ بِالدرَجَاتِ العُلَى والنَّعِيمِ المُقِيمِ).

3-6- الاستفهام بـ (ماذا): وردت ماذا في الحديث الذي رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه

قال: أتيت النبي ﷺ فقلت له: ابسط يمينك لأبائعك، فبسط يمينه فقبضت يدي، فقال: «مالك يا عمرو؟» قلت: أردت أن أشتري قال: «تشتري ماذا؟»¹.

نلاحظ مجيء (ماذا) على حسب رأي الكوفيين وهو الرأي القائل بأنّ (ماذا) لا تجب لها الصدارة في الكلام فيجوز أن يعمل فيها ما قبلها من العوامل.

4-6- الاستفهام بـ (ما الذي): وردت هذه الأداة في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَّمُ فَرَأَيْتِ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الأفقِ إِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصِنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»².

وردت الأداة (ما الذي) بدلالاتها الأصلية في هذا السياق، فالرسول ﷺ استفهم الصحابة عن فحوى حديثهم لأنه لم يكن حاضرا والقرينة ما ورد في الحديث من قول الراوي: (ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ).

¹ - رياض الصالحين، ص 205.

² - المصدر نفسه، ص 37.

5-6- الاستفهام ب (مال): وهذا النوع من الاستفهام نجده ضمن الحديث الذي رواه أبو العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شرًا، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح بينهم في أناس معه، فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت الصلاة فجاء بلال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حبس وحانت الصلاة فهل لك أن تؤم الناس؟ قال: نعم إن شئت فأقام بلال، وتقدم أبو بكر فكبر وكبر الناس، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الصفوف حتى قام في الصف، فأخذ الناس في التصفيق، وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يلتفت في صلاته فلما أكثر الناس في التصفيق التفت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع أبو بكر رضي الله عنه يده فحمد الله ورجع الفهري وراءه حتى قام في الصف فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى للناس، فلما فرغ أقبل على الناس فقال: «يا أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أحدثتم في التصفيق؟ إنما التصفيق للنساء من نابه شيء في صلاته فيقول: سبحان الله فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله إلا التفت. يا أبا بكر ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

خرجت الأداة الاستفهامية (مال) عن دلالتها الأصلية إلى غرض بلاغي هو الإنكار، فقد أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على الصحابة التصفيق أثناء الصلاة والدليل أنه لم ينتظر الإجابة منهم بل مباشرة أرشدهم إلى الصواب.

6-6- الاستفهام ب (ما بال): وهي بمعنى ما شأن وما حال²، وقد تفيد معنى الإنكار ومن شواهد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم؟» فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «ليستنهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم؟»³.

تضمن استفهام النبي صلى الله عليه وسلم معنى الإنكار لهؤلاء المصلين الذي يرفعون أبصارهم إلى السماء، فالاستفهام هنا للأمر بالانتهاء.

* - معنى حبس: أمسكوه ليضيّفوه.

¹ - رياض الصالحين، ص 87.

² - عبد الله محمد سعيد، أساليب الطلب في الحديث النبوي، ص 89.

³ - رياض الصالحين، ص 419.

6-7- الاستفهام بـ (هل): الأصل في (هل) دخولها على الجملة الفعلية، فإن دخلت على الاسم فإن ذلك يكون لنكتة بيانية و غرض بلاغي فالجملة الاسمية كما نعلم تدل على الثبات والدوام كما أنها غير مقيدة والفعلية ليست كذلك. أكثر ما وردت (هل) في الأحاديث النبوية الواردة في المدونة كان مع الجملة الفعلية، كما وردت مع شبه الجملة ومن شواهد ذلك الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبأبعك على الهجرة والجهادِ أبتغي الأجرَ من الله تعالى. قال: «فهل لك من والدَيْك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما قال: «فتبتغي الأجرَ من الله تعالى؟» قال: نعم. قال: «فارجعِ إلى والدَيْك فأحسنِ صحبتَهُما».

جاءت الأداة (هل) في هذا الحديث بدلالاتها الأصلية فاستفهام الرسول صلى الله عليه وسلم كان بغرض التثبت حول ما إذا كان للصحابي أحد من والديه حي قبل أن يوجهه إلى قيمة من القيم التي أتى بها الدين الإسلامي وهي الإحسان إلى الوالدين، أما الاستفهام الثاني الوارد ضمن نفس الحديث فقد ورد بالهمزة وذلك بغرض التقرير.

ترد (هل) مع الماضي لتفيد معنى التحقيق والتقرير بمعنى أنها تفيد معنى التحقيق الذي تفيد (قد) حين دخولها على الماضي، ومن شواهد ما رواه أنس رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله أصبتُ حدًّا، فأقمه عليّ، وحضرتِ الصَّلَاةُ فصلَّى مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فلما قضى الصَّلَاةُ قال: يا رسولَ الله إني أصبتُ حدًّا، فأقم في كتابِ الله قال: «هل حضرتَ معنا الصَّلَاةَ؟» قال: نعم، قال: «قد عُفِرَ لك»¹.

نجد في هذا الحديث أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد علم بأن الصحابي قد حضر الصلاة معه، إلا أنه أراد باستفهامه هذا حمل الصحابي على الإقرار بذلك و (هل) هنا لم ينسلخ عنها معنى الاستفهام حين أفادت التحقيق والتقرير، ونستنتج من هذا أنّ الاستفهام التقريري قد يكون بغير الهمزة. إذا دخلت (هل) على المضارع فإنها تخلصه للاستقبال فهي كالسين وسوف، فإذا دخلت على الفعل المضارع يجب أن يكون هذا الفعل للاستقبال، فإذا لم يكن كذلك وكان للحال أو معناه ماضيا فلا يجوز أن تدخل عليه (هل)، وإذا دخلت (هل) على الماضي أو على الجملة الاسمية فلا تغير شيئاً أي لا تجعلهما للاستقبال، و (هل) يكثر أن يأتي بعدها الفعل، لذلك ذهب النحويون

¹ - رياض الصالحين، ص 135.

إلى أن (هل) في أصلها (قد) وخرجوا عليه قوله ﷺ: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا» [الإنسان:1] قيل معناه: قد أتى على الإنسان.

ومن شواهد دخول (هل) على الفعل المضارع الحديث الذي روي عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قال: كُنْتُ رَدِفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قلت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا»¹.

وأيضاً الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سَمِعَ وَجِبَةَ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا، فَسَمِعْتُمْ وَجِبَتَهَا»² في هذا الحديث استعمل الرسول ﷺ أداة الاستفهام بغرض الإخبار، وهو يدخل ضمن طريق الإعلام غير المباشر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «هَلْ تَسْمَعُ النَّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَجِبْ»³.

ومنه، فإنَّ (هل) تخلص المضارع للاستقبال، أمَّا الماضي فتبقيه على ما هو عليه، فالمعاني التي تعطيها هذه الأداة أرحب وأغزر من أن تحدد ويُحاط بها.

6-8- الاستفهام بـ (كيف): ويستفهم بها عن الحال، يقال: كيف أنت؟ فنقول: صحيح، أو أكل، أو شارب، أو نائم، أو ما شابه ذلك، فـ (كيف) تحيط بالأحوال كلها، وردت في مواضع عدّة في المدونة دخلت فيها على الجملة الفعلية والاسمية ومنها:

أ- دخولها على الجملة الفعلية ومن الشواهد على ذلك الحديث الذي رواه أبو سعيد الخُدْرِيُّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ

¹ - رياض الصالحين، ص 133.

² - المصدر نفسه، ص 133.

³ - نفسه، ص 270.

الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالتَّفْخِخِ فَيَنْفُخُ» فَكَانَ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»¹.

دخلت (كيف) على الفعل المضارع لتعطي المعنى دلالة الاستمرار على الحال دون الثبات عليه، فالاستفهام عن الحال هنا جاء للتعجب، إذ كيف ينعم الرسول ﷺ والأمر كما ذكر؟ فالاستفهام في هذا السياق خرج إلى غرضين هما التعجب والاستبعاد.

ب- كما دخلت (كيف) على الجملة الاسمية وذلك في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَدْبَرَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَخَا الْأَنْصَارِ، كَيْفَ أَحْيَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟» فقال: صَالِحٌ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟» فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، وَنَحْنُ بَضْعَةَ عَشْرَ مَا عَلَيْنَا نِعَالٌ وَلَا خَفَافٌ وَلَا قَلَانِسُ، وَلَا قُمْصٌ نَمْشِي فِي تِلْكَ السَّبَاحِ حَتَّى جِئْنَا، فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ²، وردت (كيف) في هذا الحديث بدلالاتها الأصلية وهي السؤال عن الحال.

ت- كما وردت (كيف) وقد وليها حرف تحقيق فيخرج بذلك الاستفهام بها عن دلالاته الأصلية إلى غرض الإنكار والاستبعاد وذلك في الحديث الذي رواه أبو سِرْوَةَ عُبَيْةُ بْنُ الْحَارِثِ رضي الله عنه أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُبَيْةَ وَالتِّي قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا فَقَالَ لَهَا عُبَيْةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكَ أَرْضَعْتِي وَلَا أَخْبَرْتِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟» فَفَارَقَهَا عُبَيْةٌ وَنَكَحَتْ هِيَ زَوْجًا غَيْرَهُ³.

6-9- الاستفهام بـ (من): تعتبر من الأدوات التي يستفهم بها عن المفرد، ومن العلماء من يرى أن (من) و(ما) من أصل واحد وقال ابن قتيبة: «(ما) و(من) أصلهما واحد، فجعلت (من) للناس و(ما) لغير الناس يقال من مرَّ بك من القوم؟ وما مر بك من الإبل»⁴.

¹ - رياض الصالحين، ص128.

² - المصدر نفسه، ص151.

³ - نفسه، ص176.

⁴ - قطبي الطاهر، الاستفهام النحوي، ص78.

وردت (مَنْ) في المدونة في أكثر من شاهد، وكانت داخلة فيها على الجملة الاسمية والفعلية وقد تنوعت أنماطها على النحو التالي:

أ- وردت (مَنْ) وقد وليها فعل ومن شواهد ذلك في الحديث النبوي قوله ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فقلت: أنا، فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا¹.

ب- كما وردت (مَنْ) الاستفهامية في مواضع كثيرة وقد وليها اسم فطلب بها تعيين العاقل ومن شواهد ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بِالرُّوحَاءِ، فَقَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللَّهِ» فَرَفَعَتِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلْهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ»²، استعمل الرسول ﷺ (مَنْ) مع الجملة الاسمية لأنَّ السؤال عن العاقل بـ (مَنْ) يقتضي جوابا ثابتا لا متغيرا.

ج- كما وردت أيضا مع اسم الإشارة في حديث الرسول ﷺ: «من هذه؟» حين سأل عائشة (رضي الله عنها) عن امرأة كانت عندها³، ومن شواهد ذلك أيضا حديث جابر رضي الله عنه قال: أُتِيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَدَقَّقْتُ الْبَابَ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فقلت: أنا، فقال: «أنا، أنا؟» كأنه كَرِهَهَا⁴.

6-10- الاستفهام بـ (أَيْنَ): يستفهم بها عن المكان، وقد وردت أكثر من مرة في الأحاديث الواردة في المدونة وجاءت على أنماط مختلفة منها:

أ- وردت متبوعة باسم الفاعل ومن شواهد ذلك في الحديث النبوي ما روته عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمع رسول الله ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةٍ أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوَضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فقال: أنا يا رسول الله فله أي ذلك أَحَبَّ⁵.

كما وردت (أَيْنَ) أيضا متبوعة باسم الفاعل في الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى

¹ - رياض الصالحين، ص156.

² - المصدر نفسه، ص316.

³ - نفسه، ص240.

⁴ - نفسه، ص240.

⁵ - نفسه، ص86.

حَدِيثُهُ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».¹

دخلت (أين) على اسم الفاعل (السائل) وهذا من باب إبراز اهتمام النبي ﷺ بالسائل عن الساعة فقد كان بإمكانه ﷺ أن يأمر الصحابة ﷺ بإبلاغ السائل بما أراد أن يبلغه إياه لكنه ﷺ حريص على تعليم الصحابة ﷺ والذي يدل عليه ظاهر أسلوب الاستفهام في هذا الحديث أنه للإنكار، وهنا خرج أسلوب الاستفهام بهذه الأداة إلى غرض مجازي غير الدلالة الأصلية لها وهي الاستفهام عن المكان.

ب- وردت (أين) في محل جر بحرف جر ومن شواهد على ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة أن الرسول ﷺ دَخَلَ بَيْتَهُ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبْنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ ﷺ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبْنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ - أَوْ فُلَانَةٌ.²

نرى في هذا الحديث أنّ (أين) قد خالفت الأصل في استخدامها بأن تكون منصوبة على الظرفية حيث وردت مسبوقه بحرف جر وهي بالتالي في محل جر به.

ت- وردت (أين) وقد وليها فعل مضارع في الحديث الذي رواه عتبان بن مالك رضي الله عنه أنه طلب من رسول الله ﷺ أن يصلي في بيته مكانا يتخذه مصلى فغدا إليه رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فلم يجلس رسول الله ﷺ حتى قال: «أَيْنَ تَحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» فأشار له الصحابي إلى المكان الذي أحب أن يجعله مصلى.

وردت (أين) في هذا الحديث بدلالاتها الأصلية وهي تعيين المكان مع وجود فائدة في هذا الحديث وهي أنّ الرسول ﷺ يعلمنا الاستئذان، فقد استأذن ﷺ قبل دخوله البيت ثم سأل الصحابي عن المكان الذي ينوي أن يجعل منه مصلى دون أن يفرض رأيه عليه.

11-6- الاستفهام بـ (أي): يوتى بـ (أي) لتمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما، وهي

سؤال عن بعض من كل بقصد التعيين، وتكون لمن يعقل ولما لا يعقل، وإذا وليها أفعل التفضيل كانت لتمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما وقد وردت في الحديث النبوي مضافة إلى ضمير ومن شواهد ذلك الحديث الذي روى فيه جابر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ

¹ - رياض الصالحين، ص 439.

² - المصدر نفسه، ص 153.

قَتَلَى أَحَدٍ يَعْنِي فِي الْقَبْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟» فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ¹.

ومن خصائص (أي) ورودها بلفظ واحد للمذكر والمؤنث وهذا هو الأبلغ والأفصح، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله ﷺ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: جزء من الآية 34].

6-12- الاستفهام بـ (متى): وهي من الظروف المبهمة غير المتمكنة، وذلك لأنها لا تضاف ولا تصرف غيرها و(متى) لا تكون نكرة، والمقصود بها السؤال عن الزمان، ولذلك فإنه لا يجوز أن تجيب من سألك متى لقيت فلانا؟ بقولك: شهرا، لأن الشهر لا يكون توقيتا ولأن اللقاء لا يكون إلا في بعض شهر وإنما سألك لتؤقت له. وردت متى في الحديث النبوي مرة واحدة حين سأل عن وقت دخول الكلب إلى البيت أثناء انتظاره لجبريل فقال: «مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ؟»².

وردت (متى) في هذا الحديث بدلالاتها الأصلية وهي الاستفهام عن الزمان ماضيا كان أم مستقبلا.

6-13- الاستفهام بـ (أنى): وردت (أنى) في موضع واحد في الأحاديث النبوية وقد دخلت على الجملة الفعلية بمعنى (كيف) وذلك في قوله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: الآية 51] وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: الآية 172]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: يَارَبِّ يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟»³.

وافقت أنى في ورودها ضمن هذا الحديث ما ذهب إليه الزجاجي في أنها تأتي بمعنى (كيف)⁴ وهنا استعمل أسلوب الاستفهام للدلالة على استبعاد المستفهم عنه والتشكيك في حدوثه.

¹ - رياض الصالحين، ص 113.

² - المصدر نفسه، ص 406.

³ - نفسه، ص 442.

⁴ - الزجاجي، حروف المعاني، ص 34.

6-14- الاستفهام محذوف الأداة: يُعدُّ أسلوب الاستفهام مجالا خصبا لظاهرة الحذف

وقد يكون الحذف في الأداة أو المستفهم عنه أو بحذف أسلوب الاستفهام بأكمله، وقد كثر هذا الحذف في الأحاديث الواردة في المدونة ومن أمثلة هذا الحذف نذكر:

أ- **حذف همزة الاستفهام:** لقد ذهب النحاة إلى أن الهمزة أصل أدوات الاستفهام وأم بابه ولذلك يجوز حذفها من الجملة ويبقى معنى الاستفهام قائما، اعتمادا على وجود قرينة لفظية دالة عليها وهي (أم) المعادلة لها ومع عدم وجود (أم) في الكلام أجاز بعض النحويين حذف همزة الاستفهام اعتمادا على قرينة معنى الكلام وسياقه، واعتمادا على قرينة صوتية هي نغمة الاستفهام التي ينطق بها المستفهم جملة الاستفهام.

ومن شواهد ذلك في الحديث الشريف الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «أرسلك أبو طلحة؟» فقال أنس رضي الله عنه: نعم¹.

الملاحظ وجود حذف لهمزة الاستفهام في هذا الحديث دون وجود قرينة أم المعادلة وإنما القرينة هي السياق الذي ورد فيه أسلوب الاستفهام.

ومن الشواهد على ذلك في الأحاديث النبوية ما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للرهط الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت أزواجه يسألون عن عيادته: «أنتم الذين قُلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سننِي فليس مني»² والتقدير: (أنتم الذين قُلتُم كذا وكذا؟).

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنني أقول: وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟»³. والتقدير في الاستفهام هنا: (أنت الذي قلت هذا؟).

وعن جابر رضي الله عنه قال: أراد بنو سلمة أن ينتقلوا قُربَ المسجدِ فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُربَ الْمَسْجِدِ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ فَقَالَ: «بَنِي سَلْمَةَ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ»⁴.

¹ - رياض الصالحين، ص 157.

² - المصدر نفسه، ص 55.

³ - نفسه، ص 57.

⁴ - نفسه، ص 53.

ب- **حذف المستفهم عنه:** يحذف المستفهم عنه في بعض جمل الاستفهام لدلالة السياق عليه نحو ما ورد في الحديث النبوي الذي رواه أبو سريوة عتبة بن الحارث رضي الله عنه أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأنته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عتبة والتي قد تزوج بها، فقال لها عتبة: ما أعلم أنك أرضعتي ولا أخبرتي فركب إلى رسول الله صلوات الله عليه بالمدينة فسأله: فقال رسول الله صلوات الله عليه: «كيف؟ وقد قيل» ففارقها عتبة وتكحت زوجاً غيره¹.
والتقدير: كيف اجتماعك بها بعد ما قيل؟.

ج- **حذف أسلوب الاستفهام:** قد يحذف الأسلوب الاستفهامي كاملاً اعتماداً على فهم السامع، ومن شواهد ذلك في الحديث النبوي ما ورد عن جابر رضي الله عنه أن بنو سلمة* أرادوا أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله عليه فقال لهم: «إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟» فقالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال: «بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم»².

فالرسول صلوات الله عليه لم يسأل بنو سلمة مباشرة وقد كان يمكن أن يقول: (أحقاً أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟) والقرينة على هذا جوابهم بنعم.

في خلاصة هذا الفصل نستطيع القول إن هدف الدراسة النحوية هو رصد مختلف العلاقات التي تربط بين أجزاء الكلام فتجعله صحيحاً مستقيماً، مؤدياً للمعنى المراد منه، فالدراسة النحوية مثلما رأينا من خلال تحليل نماذج من الأحاديث النبوية ما هي إلا وصف للعلاقات الإسنادية التي تتحكم في مختلف أنواع الجمل وما يلحق هذه العلاقات من تغيرات، إذ تعتبر العلاقات الإسنادية بمثابة الهيكل الذي يبنى عليه الكلام ويستقيم به المعنى اللغوي، فغاية التركيب النحوي هو السلامة اللغوية وذلك بواسطة التأليف والنظم بين الكلمات.
وقد تبين لنا من خلال استقصائنا لأنماط التي وردت عليها أدوات الاستفهام في الأحاديث الواردة في المدونة:

- إنَّ عناية المتكلم بمعانيه تدفعه إلى أن يتخذ طريقة مناسبة في صياغة عباراته، فهناك أساليب تسهم في إضفاء الدلالة المحددة المطلوب إيصالها إلى المتلقي، فالاختلاف في

¹ - رياض الصالحين، ص 176.

* - بنو سلمة: قبيلة معروفة من الأنصار، وآثارهم: خطاهم.

² - رياض الصالحين، ص 53.

الأساليب لا يكون بطريقة عشوائية، حيث أن كل أسلوب من الأساليب الواردة في الأحاديث تستعمل في مكانها المناسب الذي لا يفضل فيه غيره.

- كثرة ورود الجملة الفعلية مع أدوات الاستفهام أكثر من الجملة الاسمية ولعل ذلك راجع إلى كون دلالة الفعل التجدد والاستمرار، على عكس الاسم الدال على الثبوت، فأكثر استفهامات الرسول ﷺ هي عن أفعال وقعت أو تقع، فهي تتكرر وتتجدد في حياة البشر جميعا على مرّ الزمان، والرسول ﷺ معلم للبشرية جمعاء وليس لجيل الصحابة فقط.

- عدم ورود (كم) في الاستفهام الصادر عن الرسول ﷺ في الأحاديث النبوية الواردة في المدونة كما لم ترد أيضا أداة الاستفهام (أم).

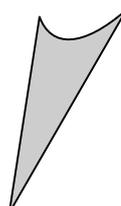
- حذف أداة الاستفهام أرحب مما ذكره النحويون، فلقد ذكر بعض النحاة أنه لا يحذف من أدوات الاستفهام إلا الهمزة، شريطة وجود قرينة لفظية، هي (أم) المعادلة للهمزة المحذوفة إلا أن الأمر أوسع من ذلك، فهناك الكثير من الأحاديث التي ورد فيها لاستفهام محذوف الأداة وقد خلا من (أم).

قمنا في هذا الفصل بدراسة نحوية لأسلوب الاستفهام، وحاولنا من خلاله الوصول إلى الإجابة عن سؤال مهم وهو: ما الجانب الذي نال اهتمام أكثر في هذه الدراسة النحوية لأسلوب الاستفهام؟ فوجدنا أن النحو يهتم بالمتكلم والمخاطب والرسالة، فالمتكلم يختار الأداة الاستفهامية المناسبة للسياق الذي ترد فيه لإيصال التركيب اللغوي سليما نحويا إلى المخاطب فيستطيع هذا الأخير فهم الرسالة دون لبس أو غموض، ويكون ذلك أيضا بمراعاة ما يلي الأداة الاستفهامية إذ أن هناك فرق شاسع بين المعنى الذي يصل إلى المخاطب في حالة ما إذا جاءت بعد الأداة الاستفهامية جملة اسمية والمعنى إذا أتت بعدها جملة فعلية وكذلك هناك اختلاف في التعبير بالفعل الماضي بعد أداة الاستفهام، عن التعبير بالفعل المضارع بعدها.

ولكن ما لم يتناوله هذا النوع من الدراسة النحوية هو جانب التأثير على المخاطب ولهذا أتبعنا هذا الفصل بفصل ثان نتناول فيه الاستفهام من الجانب البلاغي محاولين الوصول إلى الإجابة عن سؤال مفاده: ما جوانب الخطاب التي اهتمت بها الدراسة البلاغية في تناولها لأسلوب الاستفهام؟

الفصل الثاني

الاستفهام من المنظور البلاغي



توصلنا في الفصل السابق إلى أن الجانب النحوي لم يتناول جانب التأثير على المخاطب ولهذا سنتناول في هذا الفصل أسلوب الاستفهام من الجانب البلاغي محاولين الوصول إلى الإجابة عن سؤال مفاده: ما هي جوانب الخطاب التي اهتمت بها الدراسة البلاغية في تناولها أسلوب الاستفهام؟

1- أهمية علم البلاغة:

يسمى هذا العلم بالبلاغة لأنّ بمعرفته يبلغ المتكلم الغاية، وهي الإفصاح عن مراده بكلام سهل وواضح، ومشمتمل على ما يعين على قبول السامع له، ونفوذته إلى نفسه. كان القرآن الكريم العامل الأساس في نشأة علم النحو، وكذلك كان العامل الأساس في نشأة علم البلاغة، فإذا كان اللحن في النطق والقراءة ساق بعض الغيورين على الدين واللغة على وضع علم النحو فقد دعا الحرص على فهم القرآن الكريم واستكشاف أسرارها، ومكنوناته بعض اللغويين إلى وضع علم البلاغة، وإلى جانب عامل الدين توجد عوامل أخرى ساهمت في نشأة هذا العلم¹ منها: الخلاف الذي نشأ بين علماء اللغة والأدب وتباين آرائهم في مقاييس الكلام الحسن فمنهم من يراها في الكلام الرصين الجامع بين العذوبة والجزالة، ومنهم من يراها في الكلام الموشى بصنعة البديع.

وتتميز البلاغة باختيار المعاني والألفاظ، والجمل، والأساليب بما يقتضيه المقام والمقال فيكون الإيجاز في محل الإيجاز، والإطناب في محل الإطناب، والتوكيد في محل التوكيد، مع انتقاء أحسن الكلام لما يناسب الموضوع المختار، وكذا مراعاة جمهور المتلقين من السامعين أو القارئ بما يوافق عقولهم ومستوياتهم الاجتماعية.

2- الاستفهام في الدراسات البلاغية عند القدماء والمحدثين:

لم تكن الدراسات اللغوية في بداياتها قد فصلت عن بعضها فنجد المؤلف الواحد يتناول في ثناياه مسائل نحوية وصرفية وأخرى بلاغية، ولهذا فإنه من الصعب عزل النحاة عن البلاغيين عند الحديث عن مسألة بلاغية، إذ نجد أنّ النحاة كان لهم باع طويل في مجال الدراسات البلاغية فمثلاً سيبويه (ت180هـ) يُعدّ من النحاة وله آراء بلاغية عن الاستفهام وأيضاً المبرد وغيرهما ولكي لا يكون تكراراً لما سبق سنذكر من عُرفوا باشتغالهم في علم البلاغة أكثر من اشتغالهم بعلم النحو.

¹ - مصطفى أحمد المراغي، علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، ط1. لبنان: 1402 هـ-1982م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ص7-8.

ونبدأ بابن قتيبة (ت 276هـ) والذي تناول أسلوب الاستفهام بطريقة متغيرة عن سبقه كسيبويه وأبي عبيدة وغيرهما، إذ ذكره في باب مستقل، لكن ضمن مبحث الخروج على مقتضى الظاهر كما اكتفى بالإشارة إلى ثلاثة أغراض بلاغية هي: التقرير والتسوية والتوبيخ وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب) أن الكلام فيه أربعة: أمر وخبر واستخبار ورغبة¹. وتحدث ابن خالويه (ت 370هـ) عن الاستفهام وذكر أغراضه وهي: التوبيخ والتسوية والإيجاب والأمر، ثم استدل على كل نوع بشاهد من القرآن².

ومرّ الرماني (ت 386هـ) في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) مروراً سريعاً بأسلوب الاستفهام عندما عرض لبعض أمثله في باب البيان مكتفياً بالتلميح إلى بعض معانيه³. ومبحث أبو هلال العسكري (ت 395هـ) في موضوعات مستقلة كثيرة في البلاغة إلا أنه لم يتوقف عند أسلوب الاستفهام، بل أشار إليه إشارة عابرة في باب الخبر والوصف في صورة الاستفهام⁴، على عكس ابن فارس الرازي (ت 395هـ) الذي أولى أسلوب الاستفهام عناية خاصة فجعله المبحث الثاني من باب (معاني الكلام) وأفرد له قسماً خاصاً عرض فيه تعريفه وسبب تسميته والمعاني البلاغية التي حققها خروج صيغه عن أصل وضعها⁵.

وقد لاحظ ابن فارس أن الاستفهام نوعان: الأول قائم على الأصل اللغوي، وهو الاستفهام الحقيقي والذي يكون ظاهره موافقاً لباطنه، كسؤالنا عما لا نعلمه، فنقول: ما عندك؟ ومن رأيت؟ والثاني هو الاستفهام المجازي، وأشار إلى خروجه عن الأصل اللغوي إلى معان مجازية، وهذه المعاني كثيرة أطال في استقصائها حتى أوصلها إلى خمسة عشر معنى⁶.

وإذا تأملنا في كتب من جاؤوا بعد ابن فارس فإننا نجد أن عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) بذل عناية واضحة في دراسته لأسلوب الاستفهام وتناوله من زاوية فنية تتعلق بالتقديم والتأخير

¹ - محمد بن عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4. مصر: 1382هـ-1963م، مطبعة السعادة، ص4.

² - الحسين بن أحمد بن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تح: عبد العال سالم مكرم، ط6. بيروت: 1417هـ-1996م، مؤسسة الرسالة، ص327، ص328.

³ - علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تح: محمد خل الله ومحمد زغلول سلام، د ط. مصر: 1387هـ-1968م. دار المعارف، ص98.

⁴ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، د ط. القاهرة: د ت، عيسى البابي الحلبي، ص450.

⁵ - أحمد ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة، ص289.

⁶ - المصدر نفسه، ص292.

حيث قال: «... ومن أبين شيء في ذلك - يقصد التقديم والتأخير - الاستفهام بالهمزة، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت (أفعلت؟) فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وإذا قلت: أنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه»¹.

ثم أتى السكاكي (ت626هـ) وتحدث حديثاً مفصلاً عن أسلوب الاستفهام فأفرد له مبحثاً مستقلاً وأشار إلى المعاني المجازية فذكر منها الاستخفاف، والتحقير، والتعجب، والاستبطاء والإنكار والتهديد، والتوبيخ، والتنبيه، والتقرير² ويتحدث عن أدواته ومعانيها فيقول: «للاستفهام كلمات موضوعة وهي الهمزة وأم وهل وما ومن وكيف وأي وكم وأنى ومتى وأيان بفتح الهمزة وبكسرهما»³.

أمّا الخطيب القزويني (ت739هـ) فإنه في كتابه (الإيضاح) تجاوز التعريف وقفز مباشرة إلى التفصيل، ففصل في استعمال هذه الألفاظ بين التصور أو التصديق أو كليهما معاً، كما أنه تعرض للأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام فقال: «... ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب المقام..»⁴، ثم مثل لهذه المعاني بأمثلة تؤيد آراءه*.

وأتى الإمام يحيى بن حمزة العلوي (ت749هـ) بعد القزويني فتطرق في كتابه (الطراز) إلى مفهوم الاستفهام بشكل دقيق جداً حيث قال: «... والاستفهام معناه طلب المراد من غير على وجه الاستعلام، فقولنا طلب المراد عام فيه وفي الأمر، وقولنا على جهة الاستعلام يخرج منه الأمر فإنه طلب المراد على وجه التحصيل والإيجاد إلا أنه على نوعين، أسماء وحروف...»⁵.

أمّا السبكي (ت773هـ) فقد تعرض هو أيضاً لأسلوب الاستفهام في (كتابه عروس الأفراح) إلا أن ما جاء به لا يختلف كثيراً عما جاء به القزويني عن موضوع الاستفهام فقال: «... الاستفهام أحد أنواع الطلب، استعمال، فهو طلب الفهم، وقد يخرج عن ذلك لتقرير أو غيره، وله

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص111.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، ص418، ص427.

³ - المصدر نفسه، ص 308 وما بعدها.

⁴ - جلال الدين محمد بن سعد بن عبد الرحمن القزويني، الإيضاح، د.ط. لبنان: د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1 ص234.

* وهذه المعاني هي: الاستبطاء، التعجب، التنبيه على الضلال، الوعيد، الأمر، التقرير، الإنكار، التهكم والاستبعاد والتحقير.

⁵ - يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، د.ط. مصر: 1914م، مطبعة المقطف ص286.

ألفاظ ذكرها المصنف وهي الهمزة وهل ومن وأيّ وكم... «. ثم وقف وقفة مطولة مثلما فعل السابقون مع ألفاظ الاستفهام من حيث معانيها ومجالات استخدامها.

وذكر البغدادي (ت1093هـ) في خزنة الأدب أن (هل) في الأصل بمعنى (قد) فكون (قد) حرف استفهام إنما تكون بهمزة الاستفهام ثم حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال إقامة لها مقامها وقد جاءت على الأصل في قوله ﷺ: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً» [الإنسان: الآية1] (أي قد أتى...)².

وتحدث البلاغيون المحدثون عن أسلوب الاستفهام ونذكر منهم فضل حسن عباس فقد جعل في كتاب (البلاغة العربية فنونها وأفانها) مبحثاً طويلاً بعنوان الاستفهام في نقاط مرتبة فبدأ بمفهوم البلاغة ثم تحدث عن الفرق بين أدوات الاستفهام وما يستفهم عنه بكل أداة، بعدها تناول الحديث عن الأغراض والمعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام³.

ومن المحدثين من أتى بالجديد أو خالف السابقين في بعض الآراء ومن هؤلاء: عبده عبد العزيز قليقطة في كتابه البلاغة الاصطلاحية حيث يعلق على من سبقه من البلاغيين في حديثهم عن (هل) فيقول إنه: «... من التقعر الذي لا لزوم له، بل لا أساس له جعل بعض البلاغيين (هل) نوعين: هل البسيطة: وهي التي هي يسأل بها عن وجود شيء أو عدمه مثل: هل الإنسان الكامل موجود؟ وهل الحركة موجودة؟ وهل المركبة التي يسأل بها عن وجود شيء لشيء مثل: هل النبات حساس؟ هل الحركة دائمة؟ هذا ما قالوه، وبإمعان النظر فيه نجد أن لا فرق بين هل البسيطة وهل المركبة لا في تعريفيهما ولا في أمثلتهما، فنحن في الحالتين نسأل بـ (هل) عن ثبوت الوجود للإنسان الكامل أمتحقق هذا الوجود أم لا...»⁴.

كما يذهب عبد العزيز قليقطة إلى أبعد من ذلك فيرد كلام القزويني في تعليقه عن خروج معنى آية كريمة وبيت شعري إلى التقرير فيقول: «.. لكن القزويني يلوي ذراع الآية ويلوي

¹ - بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ط4. لبنان: 1412هـ - 1992 م، دار البيان العربي ودار الهادي بيروت، ج1، ص423.

² - عبد القادر بن عمر البغدادي، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، مصر: 1397هـ - 1977م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص261.

³ - فضل حسن عباس، البلاغة العربية فنونها وأفانها، ط2. الأردن: 1409هـ - 1989م، دار الفرقان، ص173.

⁴ - عبده عبد العزيز قليقطة، البلاغة الاصطلاحية، ط3. القاهرة: 1992م، دار الفكر، ص163.

ذراع البيت بقوله... ولا عجب فهو القزويني صاحب الإيضاح، ويظهر أنه إيضاح بإبهام المعنى لا بكشفه وبإدخال طالب البلاغة في المتاهات..¹

كما نجده قد عارض البلاغيين في استعمالهم لمصطلحي التصديق والتصور فيقول عن ذلك: «إنه من الغزو التتري من العلوم الأخرى للبلاغة، وإنه وقوع البلاغيين تحت تأثير العلوم الأخرى ولو لم يكن الأمر كذلك لسموا التصديق إسناداً ولسموا التصديق مسنداً أو مسنداً إليه..»²

ويأتي أحمد الحملاوي في كتابه (شذا العرف في فن الصرف) ليعيب على بعض كتب البلاغة لأصحابها قدم راسخة في هذا العلم، لأن هذه الكتب ترصد لنا أغراضاً تضيق دلالة الاستفهام في معنى واحد، وقد يكون المعنى المشار إليه غير دقيق، وهذا ما عابه على أحمد الهاشمي في كتابه جواهر البلاغة في معنى الاستئناس مثلاً، ممثلاً بقوله **عَلَيْكَ**: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه17] فيرى أن هذا المعنى غير دقيق فالاستئناس، استفعال أي طلب الأنس وأحد معاني (استفعل) الطلب حقيقة أو مجازاً³، فالسائل هو الحق **عَلَيْكَ** ولا يجوز أن يطلب من موسى الأنس لانتهاء الاحتياج في حق الله **سُبْحَانَ اللَّهِ**، ولا يمكن أن يكون الاستفهام حقيقياً لاستحالة عدم علم الله تعالى بما في يد موسى وهذا لا يجوز في حق الله تعالى، ولذا لا ينبغي أن يقال إن قصد السؤال هنا الاستئناس بل الإيناس فالفاعل له هو الله تعالى والمستأنس بالسؤال وهذه إحدى دلالات أو معاني صيغة أفعل - أي: أنس هنا - أي التعدي، وهي تصيير الفاعل بالهمزة مفعولاً. هذه إذا لمحة موجزة لبعض آراء البلاغيين القدماء والمحدثين حول أسلوب الاستفهام لأننا لو استطرنا أكثر لم يكن المقام ليتسع، وسنتطرق الآن إلى الأغراض البلاغية عند البلاغيين.

¹ - عبده عبد العزيز قليقة، البلاغة الاصطلاحية، ص169.

² - المرجع نفسه، ص160.

³ - أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، د ط. بيروت: د ت، المكتبة الثقافية، ص44.

3- المعاني البلاغية للاستفهام عند البلاغيين:

يُعدّ الاستفهام أحد الأساليب الإنشائية التي تدخل في باب علم المعاني، وهذا الأسلوب يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ سياقية مختلفة، ويعتبر خروج أسلوب الاستفهام عن معناه الأصلي من صميم البحث البلاغي، وفي هذا الصدد تعددت الآراء حول كونها خروجاً من باب المجاز أو من باب الكناية أو من مستتبعات التراكيب¹.

ويعدّ سعد الدين التفتزاني أول من أثار مسألة خروج أسلوب الأساليب الإنشائية عن معانيها الأصلية فقال وهو يتحدث عن الاستفهام: «... ثم إن هذه الكلمات الاستفهامية كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن وتحقيق كيفية هذا المجاز، وبيان أنه من أي نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله...»²، كما قال إن هذا الموضوع لم يحم أحد قبله أي لم يبحث قبله³.

اعترض على هذا الرأي وهو القول بالمجاز بعض المحققين منهم محمد أبو موسى الذي يرى أن البلاغيين تكلفوا في النقاط العلاقات بين المعنى الأصلي للاستفهام والمعاني البلاغية التي يفيدها، كما أنهم قد أتبعوا أنفسهم والدارسين بعدهم في محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين طلب هذه المعاني دون الوصول إلى رأي مقنع⁴.

كما يرى أيضاً أن المعنى الأصلي للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقياً عند إفادة الاستفهام لتلك المعاني البلاغية ومزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أدائها بطرقها المعهودة، إنّما ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام في تلك الأدوات⁵.

وقال في هذا الصدد عبد القاهر الجرجاني بعد ذكره جملة من المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام: «واعلم أنّنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإنّ الذي هو محض المعنى

¹ - عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، د ط. 1999م - 1420هـ، مكتبة الآداب ج2، ص38.

² - سعد الدين التفتزاني، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد الهنداوي، ط1. بيروت: 1422هـ - 2001م، دار الكتب العلمية، ص419.

³ - المصدر نفسه، مقدمة الكتاب.

⁴ - محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، ط2. القاهرة: 1988م مكتبة وهبة، ص365.

⁵ - المرجع نفسه، ص365.

أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا أثبت دعواه قيل له فافعل فيفضحه ذلك، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله فإذا ثبت على تجويزه قبح على نفسه وقيل له: فأرنا في موضع وفي حال، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت...»¹.

ويرى بسيوني عبد الفتاح أنه كان ينبغي لمتأخري البلاغيين أن ينتبهوا لمثل هذا فيقرروا أن المعاني التي يفيدها الاستفهام معان بلاغية يفيدها بمعونة السياق وقرائن الأحوال، بدل القول بأنها معان مجازية وتكلف علاقات واهية بين طلب الفهم وبين تلك المعاني².

ورأى ركن الدين محمد بن علي الجرجاني أننا لا نستطيع القول إن الأسلوب الاستفهامي يفيد معنى واحداً كالتعجب مثلاً بل هناك عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامي فمثلاً في قوله ﷺ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] نجد أن الاستفهام يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوعه، والتوبيخ على أنهما في الغفلة والجهالة فلو قيل إن إفادة الاستفهام في الآية الكريمة معنى التعجب إفادة مجازية والتُمست له علاقة بين طلب الفهم والتعجب فماذا يقال عن بقية المعاني التي يفيدها؟³.

ويرى محمد أبو موسى أن الصياغة الإنشائية نفسها قد تأتي في سياقين مختلفين فيلمح منها معاني مختلفة عنها في سياق آخر، فالأمر في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:40]، فالأمر هنا يفيد التهديد، وهذا ما ذكره الخطيب القزويني وكذلك المفسرون والنحاة كما يرى أن الصياغة نفسها وردت في كلام الرسول ﷺ وهي تحمل معنى مبايناً لما في الآية قال ﷺ في أهل بدر: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وفي الأمر هنا نهاية الرضا والقبول عن هؤلاء الصحابة، بينما نجد الصيغة الكنائية قلما تخلف معناها لأن المعنى مرتبط بالصيغة نفسها، وليس مرتبطاً بالسياق، وإن كان السياق معمقاً للمعنى وموسعاً له ولكنه لا يجعله مبايناً لسياق مختلف⁴.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ص110، 120.

² - بسيوني عبد الفتاح فيود، دراسات بلاغية، ط1. مصر: 1419 هـ - 1998م، مؤسسة المختار للنشر، ص60.

³ - الجرجاني، ركن الدين محمد بن علي، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تح: ابراهيم شمس الدين، ط1. بيروت:

1423 هـ - 2002م، دار الكتب العلمية، ص96.

⁴ - محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، ص248، وما بعدها.

ونستخلص أن ما سبق ذكره هو تصريح بخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى مجازية.

4- إفادة الاستفهام العديد من المعاني:

أفرد الزمخشري هذا النمط من أسلوب الاستفهام المجازي بالحديث، ورأى أنه قد يجتمع التقرير والتوبيخ والتعجب كما في قوله ﷺ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة 44/2]، فقال: (أتأمرون) الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم¹، وقد يفيد الإنكار والتعجب كما في قوله ﷺ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة 28/2]².

ولعل الجمع بين عدد من الأغراض في أسلوب الاستفهام المجازي، كان ناتجاً من اشتماله على مقاصد عدة، وإذا كنا قد استطعنا إثبات الأنواع السابقة للاستفهام المجازي فإنّ القرائن السياقية قادرة على إيجاد أنواع أخرى له، وتلك الأنواع التي جمعت من الدراسات البلاغية افتقرت إلى أنماط أخرى عند الدارسين الذين عنوا بعلوم القرآن وبلاغته، فأثبتوا أنواعاً أخرى غيرها، وإن ساقوا بعض أنماط سابقة كما أنهم قسموا الاستفهام المجازي تقسيمات مغايرة كما نجده مثلاً عند الجرجاني، والزمخشري والزرکشي وغيرهم.

وتعدّ قراءة عبد القاهر الجرجاني للنص القرآني متميّزة في هذا المجال، فقد اعتبر الجملة القرآنية باعتبار أساليبها ظاهرة لغوية بلاغية معجزة تختزن في بنيتها إشارات لا متناهية من الصور الفنية الدلالية فكانت نظريته (نظرية النظم) بداية لعلوم جديدة، رصد فيها أثر البنية اللغوية ولأسيما الأثر النحوي والصوتي والصرفي، فانتهى إلى تقسيم جديد لأساليب الاستفهام المجازية في النصّ القرآني في باب التقديم والتأخير والحذف والوصل والفصل³.

وأضاف الزمخشري جملة من أساليب الاستفهام الأخرى إلى ما جاء به البلاغيون، واتفق معهم في شرح بعض الأقسام منها:

- 1 - خروج الاستفهام المجازي إلى معنى التخييم.
- 2 - خروج الاستفهام المجازي إلى تبيكيت المخاطب.
- 3 - خروج الاستفهام المجازي إلى التحقيق.

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 277.

² - المصدر نفسه، ج1، ص 269.

³ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 112، ص 120.

4 - خروج الاستفهام المجازي إلى الاستبعاد.

5 - خروج الاستفهام المجازي إلى الإنكار.

6 - خروج الاستفهام المجازي إلى التوبيخ.

7 - خروج الاستفهام المجازي إلى عدد من المعاني.

وانفرد بالحديث عن خروج الاستفهام المجازي إلى غرض آخر، وهو أن يكون الجواب هو المقصد من السؤال، وذلك لأن للجواب أثراً في سياق الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:8] الغرض منه هنا توكيد المعنى وإزالة أي توهم لدى السامع¹، فالزمخشري لم يكتف بالنظر إلى نمط التأليف وإنما بحث في الدلائل والإشارات السياقية للنص القرآني، فخرج لنا بمفاهيم بلاغية بديعة في تفسيره للقرآن الكريم في كتابه الكشاف*.

أما الزركشي فقد قسم الاستفهام إلى قسمين:²

1- الاستفهام بمعنى الخبر: وله نوعان: أولهما للنفي ويسمى الاستفهام الإنكاري، فالمعنى منفي في أسلوب الاستفهام وتصحبه (إلا) كقوله ﴿إِلَّا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية 35]، وثانيهما للإثبات ويسمى التقرير، ويأتي النفي بعد الاستفهام كقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: جزء من الآية 172].

فالنفي أكد معنى الاستفهام الذي جاء للإثبات، وقد يجتمع مع الاستفهام أغراض أخرى كالاقتحار، والتوبيخ والعقاب، والتبكيث، والتسوية، والتعظيم، والتهويل، والتسهيل، والتخفيف والتفجع والتكثير والاسترشاد.

2 - الاستفهام بمعنى الإنشاء: وله أنواع كثيرة، منها الطلب والنهي والتحذير والتذكير والتنبية والترغيب والدعاء والعرض والتضيض، والإيناس، والتهكم، والاستهزاء، والتحقير والتعجب والاستبعاد والتوبيخ والاستبطاء والتبئيس.

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص503.

* لم يفرد الزمخشري، فصلا للاستفهام في كتابه الكشاف، إنما جاء موزعاً حسب وروده في الآيات القرآنية.

² - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص ص341، 351.

وفي النهاية نشير إلى أن الأغراض البلاغية للاستفهام غير متناهية، بل هي متجددة بتجدد السياق، والمقام، والمقاصد، وليس الاستفهام في هذا وحده بل معه الأغراض البلاغية للأساليب الإنشائية الأخرى، فالمثال الواحد قد يؤدي غرضين أو أكثر، بغلبة غرض على غرض آخر.

ومن خلال هذا العرض لبعض آراء القدامى والمحدثين في ما يتعلق بأسلوب الاستفهام، تبين لنا ما لهذا الأسلوب من أهمية في البلاغة العربية، والحديث النبوي لا يخلو من هذا الأسلوب كيف لا وهو أسلوب تشويقي ينبه السامع لما يريد أن يقال له، فقد وردت فيه عدة نماذج جاء فيها أسلوب الاستفهام لخدمة أغراض معينة، وإبراز دلالات خفية تخدم المعنى، وما هذه النماذج التي سنباشر تحليلها في المبحث الثاني من هذا الفصل إلا غيض من فيض.

5- الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام في الأحاديث النبوية :

تخرج صيغ الاستفهام عن معانيها الحقيقية إلى معانٍ أخرى، تفهم من سياق الكلام، وقرائن الأحوال، ومن أهم هذه المعاني ما يلي:

5-1- التقرير: هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده «لأن مضمون الكلام المطلوب تقريره أصبح عند المخاطب مستقراً ثابتاً، فتقرير الإنسان بالشيء جعله في قراره وقررت عند الخبر حتى استقر، ويقال أقررت الكلام إقراراً أي بينته حتى عرفه»¹.

ومنه أخذ معنى التقرير فهو طلب السائل من المسؤول أن يقر بثبوت أو نفي مضمون الاستفهام ويعترف به اعترافاً مستقراً، يشبه استقرار الماء في الأرض، بحيث لا يتأتى للسامع أو المسؤول إنكار بعد ذلك.

ولذا عرفه أهل البلاغة أنه «استفهام غايته حمل السامع على الإقرار»²، والاعتراف بأمر قد استقر عند ثبوته أو نفيه، وقد توخى الرسول ﷺ هذه الدلالة في بعض استعمالاته لأسلوب الاستفهام كما في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَيْكُمْ مَالٌ

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (قرر).

² - الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، ط1. الدار البيضاء: 1992م، المركز الثقافي العربي

وَأَرِثَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «فَإِنْ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا آخَرَ»¹.

إنَّ طرح سؤال إجابته معلومة على المخاطبين، ثم إجابتهم على هذا السؤال، يؤدي إلى إلزامهم بما سيترتب عن هذه الإجابة، ويستعمل هذا الأسلوب لإقامة الحجة على الخصم وإفحامه، ذلك أن تراجع ما قاله بعد أن أجاب وشهد عليه من سمعه وفي هذا الحديث أجمع الصحابة على أن مال أي واحد منهم أحب إليه من مال وارثه، ولما كان المال الذي لا يتصدق به المرء ويحفظه مكنوزا عنده هو الذي يؤول إلى ورثته فهو متناقض حين يدعي أن ماله أحب إليه من مال ورثته، فهو يحب مال ورثته (أي الذي سيرثه ورثته بعدما خزنه) بحيث يحافظ عليه كل المحافظة ولا يتصدق به على المحتاجين فالاستفهام في هذا الحديث يفيد الطلب والتقرير عدا عن إفادته التنبيه والتشويق لما سيقال.

والتقرير من أبرز الأغراض التي يسلك النبي لأجلها أسلوب الحوار ومن ذلك التقرير الذي ورد في الحديث الذي رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتِيهِ* فَمَرَّ بِجَدِّي أَسْكَ مَيْتٍ، فَتَنَاولَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نَحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا، إِنَّهُ أَسْكَ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيْتٌ! فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»².

يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحابة رضي الله عنهم سؤالا معروفا الجواب ليشهدهم على أنفسهم وليهتموا بما قاله لهم وليراعوا عظمته وهذه ميزة التقرير بالاستفهام أن فيه انتزاعا بالإقرار من المخاطب، وإقرار المخاطب بمضمون الاستفهام ثبوتا أو نفيا أكد من ذكره بأسلوب الخبر، ثم أن أسلوب الاستفهام يحقق عنصر التفاعل بين المتكلم السائل والمستمع المسؤول، وهو ما نلمسه في استفهام النبي صلى الله عليه وسلم.

إنَّ طبيعة الاستفهام من تصديق أو طلب قد تخفي وراء السياق، إذا كان العلم بالمسؤول عنه متحققا بالنسبة للسائل، ولذا يخرج الاستفهام عن حقيقته وهذا ما نراه في قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو بكر نفي بن الحارث رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الرِّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ

¹ - رياض الصالحين، ص 165.

* - قوله كَنَفَتِيهِ أَي: عن جانبيه، وَالْأَسْكَ: الصغير الأذن.

² - رياض الصالحين، ص 143.

كَهَيْتَهُ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ: ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمُ، وَرَجَبٌ مُضَرُّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنْنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنْنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةَ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنْنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَسَتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ» ثُمَّ قَالَ: «إِلَّا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»¹، عمد النبي ﷺ إلى تقرير هذا المعنى بطريق الاستفهام لما فيه من إثارة ولما فيه من انتزاع إقرارهم بألسنتهم وهذا أمكن من التقرير الخبري وأبلغ في التوكيد.

ومما جاء أيضا للتقرير مرادا به التثبيت والتحقيق أو حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده قول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»².

أراد الرسول ﷺ في هذا الحديث أن يدخل على نفوس المؤمنين مدخلا يؤنسها بهذه الأداة الاستفهامية، فالهمزة تهيئ الأذهان وتثيرها لمعرفة المسئول بها عنه، وفي دخولها على (رأيتم) التي هي بمعنى أخبروني دلالة على أنه كالعلم الذي تراه العين وتدركه الحواس، فالهمزة جاءت لتقرير المعنى وتوكيده، ومن شواهد ذلك أيضا ما رواه أبو ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه أن ناسا قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قَالَ ﷺ: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟ إِنْ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ

¹ - رياض الصالحين، ص 79.

² - المصدر نفسه، ص 275.

صَدَقَةً، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٍ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٍ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٍ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ».¹

فقوله ﷺ (ليس) أسلوب إنشائي طلبي نوعه استفهام ويخرج للنفي والتقرير وعبر بلفظ الاستفهام لإنكار النفي في (ليس) وذلك للمبالغة في الإثبات، والمراد تقرير ذلك في النفوس فالحديث به إثبات وليس نفيًا، لأن الهمزة نفي الإِنكار الذي يفيد النفي وليس النفي فيصبح نفي النفي إثباتًا.

ويؤتى بأسلوب الاستفهام بغرض تقرير المخاطب بالخطأ الذي وقع فيه، فقد يقع أحد الصحابة رضي الله عنهم في خطأ ما فيريد النبي ﷺ أن يتأكد من حقيقة وقوعه فيه وسبب ذلك ليبنى يعد ذلك حكمه، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قصة الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم حين تخلفوا مع من تخلف من المنافقين عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ جاءه المنافقون يعتذرون ويحلفون، فقبل رسول الله ﷺ علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله ﷻ إلا أنه لا يفعل ذلك مع أصحابه الذين يعلم النبي ﷺ صدق إيمانهم وبعدهم عن النفاق بل يحاورهم ويسألهم عن حقيقة تخلفهم وسببه، قال كعب بن مالك رضي الله عنه راوي القصة: فجنته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟» وهذا الاستفهام التقريري يحمل أيضا معاني التعجب والإنكار على المخاطب الذي لا شك في إيمانه وصدقه وليس له عذر في التخلف، حيث تيسر له ما يستطيع به المسير مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم قال كعب رضي الله عنه: بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك) فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ».²

¹ - رياض الصالحين، ص 45.

² - المصدر نفسه، ص ص 17-18.

خرج الاستفهام في هذا السياق إلى الاستفهام المجازي، فالرسول ﷺ قرّر كعب بن مالك بسؤاله لأنه يعلم عنه أنه قد حضر فرسه وعدته للمعركة، وفي الوقت نفسه نجد أن هذا الأسلوب يشوبه شيء من الإنكار على كعب، والقرينة على ذلك قول كعب (فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ) أضف إلى أن الرسول ﷺ لم يسأل باقي المتخلفين، وإنما سأل كعباً بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضي الله عنهم.

5-2- التحضيض والحث: الحث هو الحض على فعل شيء على وجه السرعة هذا ما يستفاد من معنى (حثّ) في معجم اللسان، والحث في الاستفهام يراد به دعوة المستفهم للمخاطب إلى فعل شيء حسن على وجه الاستعجال وأورد له السيوطي قوله رضي الله عنه: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة الآية: 13] تحت معنى التحضيض وهو بمعنى الحث¹.

ومن الأحاديث التي ورد فيها أسلوب الاستفهام بهذا الغرض قوله رضي الله عنه لعلي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما وقد طرقيهما ليلاً: «أَلَا تُصَلِّيَانِ»²، حث لهما على قيام الليل لما في قيام الليل من الخير وصلاح القلوب غير أنه أخرجه بصيغة الاستفهام وليس بغيرها من الصيغ كأن يقول: قوما الليل، وهذا تلطفاً منه رضي الله عنه وتودداً في حثهما على قيام الليل رغبة في مسارعتهما إلى الاستجابة لما حضهما عليه فلم يخرج بصيغة الأمر حتى لا تذهب بهذا التلطف في النصيح، أو يفهما الأمر على غير حقيقته فيقوموا على كره منهما ولهذا أخرجه الرسول رضي الله عنه بصيغة الاستفهام ليشعرهما بحريتهما في الاستجابة أو عدمها.

ويأتي التحضيض بعدة أدوات ومنها ما يتعلق بالاستفهام (هلا، ألا، ألم وأما) وهذه الأدوات إذا دخلت على أمر مستقبل وكان فيها معنى الطلب فهو تحضيض، أما إذا دخلت على ماضٍ فهو تنديم، ومن شواهد الحديث في هذا الغرض ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: اشتكى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شكوى له، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده مع عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله فبكى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى القوم بكاء النبي صلى الله عليه وسلم بكوا فقال صلى الله عليه وسلم: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا _ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ _ أَوْ يَرْحَمُ

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (حثّ).

² - رياض الصالحين، ص 295.

وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»¹، قول النبي ﷺ: «(ألا تسمعون؟) تحضيض على سماع ما يقوله وهم في حال البكاء ولعل النبي ﷺ فهم من بعض أصحابه الإنكار فأراد أن يبين الفرق بين الحالتين»².

ومن التحضيض حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج عليهم فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»³.

فعل النبي ﷺ رآهم لم يحسنوا الصف في الصلاة فأراد أن يحضهم على ذلك ويرغبهم فيه فقال لهم: «ألا تصفون؟» بصيغة التحضيض، وقوى رغبتهم بالتشبيه بصف الملائكة وتقبيد الصف بكونه عند الله عجل وهذا حضٌ عظيم، ولذا كان له أثر في نفوس الصحابة رضي الله عنهم فاشتاقت نفوسهم أن يكونوا كذلك فسألوا عن صف الملائكة عند ربهم والله أعلم.

5-3- التشويق والإثارة: الإثارة والتشويق يلتقيان لغويا في معنى تهيج المشاعر

وتحريكها غير أن الإثارة تهيج للمشاعر على الإطلاق سواء من غضب أو من غيره فـ «ثار الشيء ثورا وثورانا وتثور: هاج ويقال: ثارت نفسه: جاشت»⁴.

أما مادة الشوق فتعني «نزاع النفس إلى شيء، والشوق حركة الهوى، ويقال: شق إذا أمرته أن يشوق إنسانا إلى الآخرة وشاقني شوقا وشوقني: هاجني»⁵.

والتشويق من الأغراض التي يأتي لها الاستفهام حينما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالاته، نحو ما سيلقيه إليه بعد الاستفهام، وتحريك مشاعره إلى أمر محبوب يرغب فيه السائل.

كثر هذا الغرض في الحديث النبوي، وأكثر ما ورد منه قد دخلت فيه همزة الاستفهام على (لا) فاكتسب معنى العرض، أو معنى الاستفتاح بحسب المقام مثل: (ألا أدلكم؟)، ومن أمثلة التشويق في الحديث النبوي الحديث الذي روى فيه أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «ألا

¹ رياض الصالحين، ص 403.

² ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 3، ص 175.

³ رياض الصالحين، ص 282.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثور).

⁵ المصدر نفسه، مادة (شوق).

أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكَ رَبَّاطٌ»¹.

يفيد الاستفهام هنا التنبيه والتشويق لما سيقال، وليس خافياً أن النبي ﷺ لا يسأل أصحابه ليتعلم منهم الأمور الدينية، فسؤاله إياهم لا يمكن أن يكون على وجه الحقيقة أي أنه لا يمكن أن يكون استفهاماً يفيد مجرد الاستفهام ومعرفة الإجابة بل لابد أن يخرج الاستفهام إلى معانٍ أخرى، من أهمها التنبيه والتشويق وأحياناً التقرير ومرات التوبيخ، والأمثلة على ذلك في الأحاديث النبوية كثيرة جداً منها ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فالزقت به بطنها فأرضعتة فقال رسول الله ﷺ: «أترُونَ هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا والله، فقال: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»².

يفيد الاستفهام في هذا الحديث التنبيه والتشويق، فهذه الحالة العاطفية التي يراها الصحابة رضي الله عنهم رأي العين جعلتهم يتعاطفون معها، فأى شخص يرى مثل هذه المرأة لا يسيطر على عينيه أمام هذا الموقف الأمومي، وهنا يستغل الرسول ﷺ هذا الموقف المؤثر الذي قلما يتكرر ليوصل فكرة عظيمة، وهذه الفكرة يريد أن يثير انتباه السامعين إليها فيسألهم: «أترُونَ هذه طارحة ولدها في النار؟» والإجابة على هذا السؤال لا ريب فيها ولا جدال، لكن السؤال يثير التشويق إلى حده الأقصى فتأتي الجملة الاسمية لتريح ذهن من التوتر لسماع هذا الخبر المنتظر بعد الاستفهام التشويقي «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا».

وكذلك من الأساليب الاستفهامية التي تفيد التشويق في الأحاديث النبوية ما نجده في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ فَمَا نَرَى مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا تُرْبَةً نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ فَمَا نَرَى مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا

¹ - رياض الصالحين، ص 273.

² - المصدر نفسه، ص 131.

يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»¹.

في هذا الحديث يفيد الاستفهام معلومة مفادها أن المسلم هو الذي يدخل الجنة، وقبل أن يخبرهم ما يريد يسألهم سؤالاً معلوم الإجابة مسبقاً، فمن من الصحابة لا يأمل دخول الجنة؟ والدليل على ذلك قولهم (نعم)، وهنا يصغي الحضور لسماع ما يود قوله وبينما يصل الإصغاء ذروته ويصل الشوق للمعلومة القادمة، يخبرهم الرسول ﷺ بأن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة.

وقد توخى الرسول ﷺ معنى الإثارة والتشويق في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحْجُونَ، وَيَعْتَمِرُونَ وَيَجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ. فَقَالَ ﷺ: «أَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئاً تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مِنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»².

حَقَّقَ الاستفهام لتضمنه ما يُشْتَقُّ إلى معرفته الإثارة، وهيج شعور الصحابة رضي الله عنهم بقريظة أن الصحابة تشوقوا إلى أن يخبرهم الرسول ﷺ بما شوقهم إليه فقالوا: بلى يا رسول الله فكان شوقهم إلى أن يعرفوا كيف سيخصهم الرسول ﷺ بهذه الخيرية بعد أن اشتكوا إليه استئثار الأغنياء بالثواب لاجتماعهم معهم في العبادات، وتميزهم بقدرتهم على العتق، وتقديم الصدقات فتلهفت أنفسهم لمعرفة ما العمل الذي سيجعلهم يتميزون عنهم به بل يسبقونهم ومن لا تميل نفسه إلى هذا الخير؟

أمَّا سرُّ اختيار الاستفهام أسلوباً للتعبير عن هذه المعاني بدلا من الخبر كأن يقول مثلا: «سأعلمكم بما تدركون به من سبقكم...» فلأن في إثارة التعبير بالاستفهام - في هذا المقام - بلوغا بالإثارة والشوق في نفوس السامعين إلى أقصى حد فيستولي ﷺ على نفوس جميع

¹ - رياض الصالحين، ص 134.

² - المصدر نفسه، ص 171.

سامعيه، أما أسلوب الخبر فقد لا يتحقق له ذلك، لأن الاستفهام بطبيعة صيغته فيه جذب للانتباه فإذا اجتمع جذب الانتباه والتشويق، بلغت الإثارة قِمَّتَها، كما أن أسلوب الاستفهام يحقق التواصل بين المتكلم والمتلقي فيصبح المتلقي فاعلا بدوره في الحوار، على عكس الأسلوب الخبري حيث يكون المتلقي مستمعا فحسب، دون وجود تفاعل مع المخاطب (المتكلم).

ولا يلزم في الاستفهام الذي يراد به التشويق أن يجيب المتلقي بما يريد المتكلم (بما يوافق أغراض المتكلم) فالقصد من هذا الأسلوب استدراج المتلقي للانتباه إلى ما يلحق الاستفهام من كلام و كثيرا ما يواصل المتكلم كلامه دونما انتظار الرد¹، كما في قوله ﷺ: «يا أبا موسى ألا أدُّلك على كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» بلى يا رسول الله، قال: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»².

فكثيرا ما يأتي التشويق في مقام التعليم حيث يكون المخاطب جاهلا بالخبر وحريصا على المعرفة فيكون للاستفهام وقع في نفسه فيستميله ويدفعه إلى الحرص على التعلم والرغبة في تحصيله، خاصة إذا كان من أهل الحرص عليه والصحابة كانوا حريصين على تعلم أمور دينهم كما أن النفس الإنسانية غالبا ما تستجيب للإثارة، فالرسول ﷺ يستعمل أسلوب الاستفهام التشويقي ليستفهم الصحابة ﷺ عن شيء لا يعرفونه تشويقا لهم إلى معرفته والتساؤل عنه وأيضا يسألهم عن الشيء المعلوم دلالاته عندهم ليضيف إليه دلالة جديدة هي أولى من الدلالة الأولى المعهودة لديهم، فيشعر الصحابة ﷺ أن النبي ﷺ سيضيف شيئا ولذا هم يحترسون في الجواب، وأيضا رغبة منه ﷺ في أن يستثير رغبتهم في التعلم والمعرفة حينما يستفهم ومن أمثلة ذلك في السنة النبوية ما رواه زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»³.

¹ - الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية، ص 117.

² - رياض الصالحين، ص 423.

³ - المصدر نفسه، ص 415.

ورد التشويق في هذا الحديث بصورة الاستفهام لما فيه من تنبيه، وإثارة نفسية لتقبل المعلومات والنفس الإنسانية تستجيب للإثارة،¹ ولما كان الصحابة رضي الله عنهم لا يعرفون الإجابة كانوا يردون العلم إلى الله عز وجل، والرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام لا يستفهم لأنه يريد الإجابة بل لأجل التشويق، فقد أراد أن يشوق الصحابة رضي الله عنهم في ذكر هذه الحقيقة لهم، وأن يجعلهم يتلهفون شوقاً إلى معرفة ماذا قال ربهم عز وجل.

5-4- الإنكار: جعل الجرجاني الإنكار أحد أربعة مقاصد للاستفهام المجازي²، فمن استعمال الإنكار بما يكون قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ [القيامة:3]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد:7]. ثم يخلص إلى التقرير في الآيات الثلاث التابعة ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)﴾ ونلاحظ الإنكار الذي يبلغ حد التوبيخ في الاستفهام السابق ولهذا يصبح التوبيخ جزءاً أصيلاً في الاستفهام الإنكاري حتى سمي عند الدارسين بالإنكار التوبيخي³.

قد يأتي الاستفهام النبوي للإنكار وهو نوعان: إنكار إيطالي، ويؤتى به لتكذيب المخاطب أو إبطال قوله كقوله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الاسراء:40] أي: لم يكن من الله عز وجل اصطفاء ولا اتخاذ والنوع الثاني: إنكار توبيخي يأتي لتوبيخ المخاطب على ما وقع منه من فعل مذموم⁴.

لم يرد الإنكار التكذيبي في الأحاديث الواردة في المدونة أما الإنكار التوبيخي فقد تكرر وروده كثيراً في الأحاديث النبوية الواردة في كتاب رياض الصالحين ومن شواهد ذلك الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آتَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عَيْبَةَ بْنَ حِصْنِ بْنِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى نَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآتَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدَلَّ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصَّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ

¹ - بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني، د ط. القاهرة: د ت، مكتبة وهبة، ج 2، ص 127.

² - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 114، ص 119.

³ - ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج 1، ص 25.

⁴ - الزمخشري، الكشاف، ج 1، ص 24.

بأكثرَ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ» فَقُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا¹، وأيضاً الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ عَلَى صَبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بِلَاءً، فقال: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قال: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»².

فالاستفهام هنا إنكار من الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو ينكر على العربي غشه وذلك بإخفائه الطعام الفاسد تحت الصحيح ليظهر فقط البضاعة السليمة، وفي هذا الإنكار مسحة من التقرير والتبكييت، فقد قام هذا الأعرابي بعملية غش وهذا أمر مرفوض في ديننا الحنيف، ولما كان هذا الموقف يجب استنكاره، ولما كان أسلوب الاستنكار لا بد من أن يكون بطريقة حكيمة وبأسلوب حسن فلا يستحسن أن يقال له أنت غشاش، وكان عليك أن تضعه فوق الطعام فالرسول صلى الله عليه وسلم (في هذا المقام) أوصل الفكرة بأسلوب فيه رأفة رحمة، فهو حين يعاتب يعدل إلى أسلوب الاستفهام الذي يخفف من حدة العتاب.

وأيضاً من هذا القبيل نجد الحديث الذي رواه أبو سِرْوَةَ -عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ- رضي الله عنه والذي تَزَوَّجَ ابْنَةُ لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ رضي الله عنه: مَا أَعْلَمُ أَنَّكَ أَرْضَعْتِي وَلَا أَخْبَرْتِي، فَكَرَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟» فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ³.

ذكر ابن حجر أن النبي صلى الله عليه وسلم يعاتب وينكر بأسلوب الاستفهام للتخفيف من حدة الإنكار على أصحابه رضي الله عنهم⁴، وهو هنا ينكر على عقبة عدم مفارقتها لزوجها بعدما قيل ما قيل فهو بهذا يوجه إليه أمراً بطريقة غير مباشرة مفادها (ما دام قيل ما قيل فعليك مفارقتها) ولكنه بإنكاره عليه ذلك فهم عقبة المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والدليل أنه فارقها وتزوجت غيره.

كما نجد الإنكار التوبيخي في استفهامه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِي، وَطَعْنَتْهُ بَرْمُحِي

1- رياض الصالحين، ص 27.

2- المصدر نفسه، ص 385.

3- نفسه، ص 176.

4- ابن حجر، فتح الباري، ج 2، ص 197.

حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: « يَا أُسَامَةَ، أَقَتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ » قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مَتَعَوِّدًا، فَقَالَ: « أَقَتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ » فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ¹.

لقد أثار ﷺ باستنكاره ما لم يكن حاضرا في ذهن أسامة رضي الله عنه حين أقدم على قتل الرجل بعد تلفظه بالتوحيد، إذ من غير الممكن التوصل إلى معرفة ما في القلوب من النوايا والدوافع فما كان عليه في ذلك الموقف سوى الكف عن الرجل، والأخذ منه بالظاهر، بلا تكلف البحث عن النوايا والمقاصد.

وذكر ابن حجر أن «زجره بصيغة الاستفهام الإنكاري (أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟) ثم اعتذار أسامة بقوله: إنما كان متعوذاً، وإعادة النبي الإنكار عليه، في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعدة حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد، وفي تكريره ذلك والإعراض عن قبول العذر زجر شديد عن الإقدام على مثل ذلك»².

وفي هذا الحديث نجد الرسول ﷺ قد استعمل أسلوب النداء بالحرف (يا) في مقام الإنكار لما فيه من مد يسهم في إبراز الإنكار صوتيا.

ونجد أيضا إنكاره ﷺ على أسامة رضي الله عنه في موقف آخر، وذلك حينما شفع في المرأة المخزومية التي سرقت فقال له ﷺ: « أَسْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدِّدَ اللَّهُ تَعَالَى؟!! » ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: « إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »³.

فالاستفهام هنا توبيخي والمعنى: «لا ينبغي أن يكون منك ذلك؟»⁴ والإنكار هنا جاء منه ﷺ «لأنه سبق له الشفاعة في الحد قبل ذلك»⁵.

وأیضا لأنَّ النبي ﷺ تناول الأمر من جهة أنه حد من حدود الله عز وجل المنصوص عليها في القرآن الكريم فكيف أمكنه التجاوز بطلب الشفاعة فيه؟ هو الذي جعله يتشدد في إنكاره، ثم إنه

¹ - رياض الصالحين، ص 123.

² - ابن حجر، فتح الباري، ج 12، ص ص 240-241.

³ - رياض الصالحين، ص 188.

⁴ - ابن حجر، فتح الباري، ج 1، ص 94.

⁵ - المصدر نفسه، ج 12، ص 112.

عمم القضية حين قام وخطب في الناس ليبين لهم مدى خطورة انتشار ظاهرة المحاباة والتميز في تطبيق الأحكام على الناس في الأمم والمجتمعات، وأنه سبب هلاكها.

ومثل هذا نجده في الحديث الذي روته عائشة (رضي الله عنها) قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَالِي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فقال: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ¹.

ولعل النبي ﷺ في هذا الموقف كره للرجل قطع نفسه عن فعل الخير فأنكر عليه ذلك توبيخاً واستخدم أسلوب الاستفهام في الإنكار لما في الاستفهام من استثارة للنفس وشدة التنبيه لها لعلها أن تتأمل في سوء صنيعها، فالنبي ﷺ يعاتب وينكر بأسلوب الاستفهام للتخفيف من حدة الإنكار على أصحابه².

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلِيَّ تَوْبِينِ مَعْصَرَيْنِ، فَقَالَ: «أُمُّكَ أَمْرَتُكَ بِهَذَا؟» قُلْتُ: أَعْسِلُهُمَا؟ قَالَ: «بَلْ أَحْرَقَهُمَا»³.

قال النووي في شرحه هذا الحديث: «قوله ﷺ: «أُمُّكَ أَمْرَتُكَ بِهَذَا؟» معناه أن هذا من لباس النساء وزيهن وأخلاقهن وأما الأمر بإحراقهما فقيل: هو عقوبة وتغليظ لجزره وزجر غيره عن مثل هذا الفعل»⁴.

5-6- النفي: تدور كلمة النفي لغة حول الطرد والإبعاد، ويقال: «نفيت الرجل

وغيره أنفيه نفياً إذا طردته ونفى الشيء نفياً: جده، وفي الحديث «المدينة كالكير تنفي خبثها» أي تخرجه»⁵، هذا المعنى اللغوي للكلمة مراد كذلك في الاستفهام الذي يقصد النفي من سؤاله فيطلب من المسؤول أن يستبعد نقيض النفي وهو الإثبات بل عليه أن يقر بالسلب أي: سلب مضمون الحكم الذي تضمنه الاستفهام وشرط دلالة الاستفهام على النفي أن يصح «حلول أداة النفي محل أداة الاستفهام»⁶.

¹ - رياض الصالحين، ص 86.

² - ابن حجر، فتح الباري، ج 2، ص 197.

³ - رياض الصالحين، ص 429.

⁴ - النووي، شرح صحيح مسلم، ج 7، ص 246.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (نفي).

⁶ - عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل المعاني، ط 2. بيروت: 1405 هـ - 1984 م

عالم الكتب، ص 124.

وقد كثر خروج الاستفهام إلى النفي في كلام العرب وأشعارها، وفي القرآن الكريم، ولعل هذا الأسلوب يثير المتلقي، ويضفي على أسلوب الاستفهام جمالية وروعة كقوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: الآية 135] أي (لا يغفرها إلا الله) وكقوله ﷻ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255] أي (لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه) وكقوله ﷻ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] أي: (ما جزاء الإحسان إلا الإحسان)¹.

ومن أمثلة ذلك في السنة النبوية الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»². القصد من أسلوب الاستفهام في هذا الحديث النفي وإنما أثر الرسول صلى الله عليه وسلم التعبير عنه بأسلوب الاستفهام حثا للصحابة على التفكير والتدبر في أثر الوضوء والصلوات الخمس والدرن المنفي بقاؤه قد يكون ماديا فيكون الأمر خاصا بالتفكير في آثار الوضوء، وقد يكون معنويا والمراد الذنوب التي يغسلها الوضوء وتمحوها الصلاة، ولذلك عقب صلى الله عليه وسلم على إقرارهم بالنفي بقوله: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا».

وسر عدوله صلى الله عليه وسلم عن النفي الصريح إلى أسلوب الاستفهام أن النفي الصريح قد لا يأبه له الصحابة، لكن إقرارهم هم بنفيه فيه مزيد من التذكير لهم، فأقرارهم بالنفي أوقع في نفوسهم وأبلغ من أن يعبر عنه بالنفي الصريح.

5-7-الأمر: يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي يسمى الأمر، فيزيده إيحاءً جمالياً، لأن المقصود ليس الاستفهام الحقيقي كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91] أي (انتهوا) وهذا نحو قوله ﷻ في [آل عمران: 20]: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ﴾ أي (أسلموا) وكقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء جزء من الآية 75] أي (قاتلوا في سبيل الله).

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص385، ص 384.

² - رياض الصالحين، ص275.

ورد أسلوب الاستفهام بمعنى الأمر في مواضع منها قوله ﷺ لصاحب الجمل: « أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ أَيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ يَشْكُو إِلَيَّ أَنْكَ تُجِيعُهُ وَتُدْرِبُهُ » وهذا الحديث رواه عبد الله بن جعفر رضي الله عنه وهو يروي فيه أن الرسول ﷺ استنتر بحائش نخل ليقضي حاجته فإذا فيه جملٌ فما إن رأى رسول الله ﷺ حتى جَرَجَرَ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ*¹ وَذَفَرَاهُ فَسَكَنَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟» فجاء فتى من الأنصار فقال هذا لي يا رسول الله فقال له ما سبق ذكره أي: اتق الله في هذه البهيمة².

5-8- الإعلام والتبشير: من الطبيعي أن يسأل السائل ليعلم ما لا يعلم أو ما يريد أن يعلم، وهذا هو الأصل في الاستفهام «فمن جزع من الاستبهام فزع إلى الاستفهام»، أما أن يعتمد المتكلم إلى استعمال أسلوب الاستفهام لأجل الإعلام فهذا قمة البلاغة، وهو ما يؤكد سعة اللغة العربية لكل أنواع التراكيب الفنية، والرسول ﷺ يعتمد إلى هذه الطريقة حين يريد أن يسمع المخاطب بخبر يتضمن بشرى تخص المخاطب أو تخصهما معا، ومن ذلك الحديث الذي رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ فَقَبَضْتُ يَدِي، فَقَالَ ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قلتُ: أردتُ أنْ أُشْتَرِطَ فَقَالَ ﷺ: «تَشْتَرِطُ مَاذَا؟» قلتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، فَقَالَ ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»³.

وأیضا حين بشر النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم بأن سورة الإخلاص تعادل ثلث القرآن، فاستهل كلامه بالاستفهام فقال: «أَيُعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ثلث القرآن» [الآيتين: 1 و2 من سورة الإخلاص]⁴.

لم يستعمل الرسول ﷺ الأسلوب الخبري لأنه لا يثير انفعال المتلقي «وإنما تنير الانفعالات العبارات الإنشائية من أمر ونهي واستفهام وتعجب وعرض وحض إلى غير ذلك من

* - قوله: (سراته): أي: سنامه. قوله (ذفرأه): هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء، وهو لفظ مفرد مؤنث.

قال أهل اللغة: الذفرى: الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن، وقوله: (تدبئة) أي: تتعبه.

² - رياض الصالحين، ص 259.

³ - المصدر نفسه، ص 205.

⁴ - نفسه، ص 269.

العبارات الإنشائية¹، فقد كان بإمكانه ﷺ أن يخبرهم مباشرة بأن من قرأ سورة الإخلاص كمن قرأ ثلث القرآن ولكنه أثر استعمال الأسلوب الإنشائي لأنه يثير الانفعال، ويحرك القلب والوجدان.

5-9- الاستدراج: الاستدراج استفعال من درج، وأصلها ترتيب الشيء فوق شيء ومنه درج البناء ودرجه مراتب بعضها فوق بعض، واستدرج فلان فلانا أي أدناه منه على التدرج ومنه قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف182]².

فالاستدراج انتقال بالمستدرج من أمر إلى آخر أو من حال إلى آخر بطريقة من طرائق الكلام حيث لا يشعر أو يعلم المستدرج، والقصد من الاستدراج إقامة الحجة على المستدرج وإلزامه بها سواء بحق أو بباطل ويستعمل الاستفهام في الاستدراج لدفع المسؤول إلى جواب يكون حجة عليه.

ومن ذلك ما روته أم المؤمنين جويرية بنت الحارث (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ، فَقَالَ: «أَصُمْتَ أَمْسِ؟» قالت: لا، قال: «تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا؟» قالت: لا، قال: «فَأَفْطِرِي»³. فأسئلة النبي ﷺ ليست لطلب العلم بل هي أسئلة العارف لا أسئلة من لا يعرف، وهذا ما ذهب إليه ابن الصايغ بقوله: «قد توسعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعان أو أشربته تلك المعاني»⁴، ومن ذلك أيضا نجد الحديث الذي رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَبَايُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ ﷺ: «هَلْ مِنْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: «فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَارْجِعِي إِلَى وَالِدِكَ ، فَأَحْسِنِي صُحْبَتَهُمَا»⁵.

¹ - قطبي الطاهر، الاستفهام البلاغي، ط2. الجزائر: 1992م، ديوان المطبوعات الجامعية، ص64.

² - ابن منظور، لسان العرب، مادة (درج).

³ - رياض الصالحين، ص421.

⁴ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص79.

⁵ - رياض الصالحين، ص104.

5-10- الاستدراك: تدور معاني «درك» حول الإدراك لما سبق بمعنى اللحاق والوصول إلى الشيء «قال الليث: الدرك إدراك الحاجة ومطلبه ... واستدرك ما فات وتداركه بمعنى»¹.

و «استدرك الشيء بالشيء حاول إدراكه به»² فالاستدراك: طلب إدراك أمر ما أو كلام سابق في حوار بين السائل والمسئول، ويكون حين يعمد السائل إلى استعادة ما قال رغبة منه في زيادة بيان أو إيضاح فكرة، وترسيخ حكم أو تغييرا له، وقد استعمله الرسول ﷺ في بعض المواقف ومثال على ذلك الحديث الذي رواه عنه أبو قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تَكْفُرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ قُتِلْتَ؟» قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِي ذَلِكَ»³.

والقصد من الاستفهام بقوله «كَيْفَ قُتِلْتَ؟» استعادة طرح السؤال مرة أخرى ﷺ وهذا استدراك لمزيد تنبيه وزيادة تأكيد على ما زاده على إجابته في الحديث الأول وهو الدين تنبيهها على أن حقوق الناس ولاسيما الدين لا يكفرها الجهاد والشهادة في سبيل الله⁴، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا مات الميت سأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟»

إن حرصه ﷺ أن يستدعي السائل فلأن الأمر تشريع واطمئنان على التبليغ، أما حرصه أن يستدرك السائل باستعادة ما سأل من قبل بأسلوب الاستفهام فلما يتميز به أسلوب الاستفهام من قدرة على تنبيه المسئول واستثارتته وحثه على الإصغاء لما سيجيب به في المرة الثانية ولو استدرك بقوله مثلا (هذا جبريل يقول: إلا أن يكون عليك دين) لاقتصرت الدلالة على الإضافة وافتقد الكلام ما يحققه الاستفهام من تنبيه وإثارة واستدراك، والله أعلم.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (درك).

² - المصدر نفسه.

³ - رياض الصالحين، ص322.

⁴ - يحيى بن شرف النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط1. عمان: 2002م، دار ابن حزم، ج7، ص30.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ، جاءه أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسولُ الله ﷺ يُحدِّثُ، فقال بعضُ القومِ: سمعَ ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين السائلُ عن الساعة؟» قال: ها أنا يا رسولَ الله، قال: «إذا ضيعت الأمانةُ فانتظرِ الساعة» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسد الأمرُ إلى غيرِ أهلهِ فانتظرِ الساعة»¹.

5-11- التعجب: التعجب من مادة «العجب والعجب» بمعنى «إنكار ما يرد عليك لقلة

اعتياده، وأصل العجب في اللغة كما قال الزجاج أن الإنسان إذا رأى ما ينكره، قال قد عجبت من كذا، فهو يتعجب من الشيء إذا عظم موقعه عنده وخفي عليه سببه، ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [سورة ق الآية: 2] فهم يتعجبون من قول الرسول ﷺ منذرا إياهم بأنهم سيبعثون للحساب، لأنهم اعتادوا على ما درج عليه آباؤهم من اعتقادهم بعدم البعث²، وقد يرد التعجب بمعنى إظهار الاستحسان والإعجاب للشيء، قال ابن منظور: «والتعجب أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله فهو استعظام أمرٍ ظاهرٍ المزية خافي السبب، وإذا خرج من أسلوب النحو السماعي والقياسي إلى الاستفهام فإنما يراد به المبالغة في إظهار التعجب، وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم كقوله ﷺ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5] وقوله ﷺ: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 63]³.

ويأتي التعجب إمّا لإظهار العجب استغرابا ودهشة لعدم الألف والاعتیاد على الأمر المتعجب منه، أو لأن ما يتعجب منه ليس له سبب معلوم لوروده عند السائل وقد تشتت حدته فيقترن به الاستكار، وأما أن يرد التعجب بمعنى إظهار الاستحسان والإعجاب فيكون تعجبك لإعجابك به فتسأل سؤالا «القصدي فيه إلى بيان الاستغراب ويجري هذا الاستفهام عادة بعد حصول الظاهرة موطن التعجب»⁴.

¹ - رياض الصالحين، ص 439.

² - ابن منظور، اللسان، مادة (عجب).

³ - المصدر نفسه.

⁴ - الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية، ص 114.

وقد ورد هذا النوع من الأسلوب الاستفهامي في الأحاديث النبوية الواردة في رياض الصالحين ومن شواهد ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه، قال: كَانَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه يَسْتَكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ فَقُبِضَ الصَّبِيُّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي؟ قَالَتْ أُمُّ سَلِيمٍ وَهِيَ أُمُّ الصَّبِيِّ: هُوَ أُسْكِنُ مَا كَانَ، فَفَرَّيْتُ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ: وَارُوا الصَّبِيَّ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا»، فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمْرَاتٍ فَقَالَ: «أَمَعَهُ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، تَمْرَاتٍ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ¹.

قال النووي: « وهذا السؤال للتعجب من صنعها وصبرها وسرورها بحسن رضاها بقضاء الله تعالى»².

استفهم النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابي استفهاما فيه تعجب من حسن صنع الزوجة الصابرة بقضاء الله وقدره، وهذا يدعو الزوج إلى الرضا عنها لا إلى الغضب والشكوى منها، ومنه فالتعجب شعور داخلي، تتفعل به النفس حين تستعظم أمرا نادرا لا مثيل له.

5-12- التوبيخ والتقريع: التوبيخ من وبَّخ أي لام وعذل وأنب «يقال: وبخت فلان

بسوء فعله توبيخا»³، والتقريع التأنيب والتعنيف وقيل الإيجاع باللوم، وقرعت الرجل إذا وبخته وعدلته»⁴ والتقريع أشد في اللوم لبلوغه درجة التعنيف والتوبيخ قد يكون أقل من ذلك في الشدة، ويدور معنى (قرع) حول «نزع الشيء وسلبه والضرب وإنزال الأمر الشديد بالمقرع ومنه القارعة علما على يوم القيامة وهي في اللغة: النازلة الشديدة تنزل عليهم بأمر عظيم»⁵.

يكون التوبيخ والتقريع إذا ابتغى السائل بسؤاله إنزال عقاب نفسي بالمخاطب لصدور شيء مشين منه كان الأجدر به أن لا يصدر منه، ويكون التوبيخ إما لجعل المخاطب يرتدع عن أمر بدر منه فيستفيد من التوبيخ فيتجنب ذلك الأمر، وبذلك يكون قد استفاد من ذلك التوبيخ

¹ - رياض الصالحين، ص 27.

² - النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، ص 234.

³ - ابن منظور، اللسان، مادة (وَبَّخ).

⁴ - المصدر نفسه، مادة (قَرَعَ).

⁵ - نفسه.

وإما أن يكون قد فات أوان الردع، ولن يستفيد من التوبيخ سوى إنزال العقاب النفسي عليه والتفريع لم يصدر أبداً عن النبي ﷺ فهو معصوم من هذا وإنما صدر عنه التوبيخ لتعليم الصحابة رضي الله عنهم من أخطائهم، ومن الشواهد على ذلك الحديث النبوي الذي روي فيه أن النبي ﷺ استعمل ابن اللثبية رضي الله عنه على صدقات بني سليم، فلما قدم ابن اللثبية رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وحاسبه قال: هذا الذي لكم وهذه هدية أهديت لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإنني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت إليّ أفلاً جلس في بيت أبيه أو أمه والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرف أحداً منكم لقي الله يحمله بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه حتى روي بياض إبطيه فقال: «اللهم هل بلغت؟» ثلاثاً¹.

وبخ الرسول ﷺ في هذا الحديث الصحابي ابن اللثبية رضي الله عنه موجهها من خلاله رسالة إلى جميع الصحابة رضي الله عنهم وإلى من يجيء بعدهم من الناس كافة رسالة مفادها رفض الرشوة ولو خاطبه الرسول ﷺ فقال له: (هذا ليس من حقك لأنك لو جلست في بيتك ولم تكن موظفاً في جمع الصدقات ما جمعت هذا الذي تقول أنه لك) لما كان فيه أي توبيخ ولكن كلاماً طويلاً غير مفهم غير أن هذه الصيغة الاستفهامية أوصلت الرسالة بطريقة حالت دون محاولة ابن اللثبية النقاش في الأمر.

5-13- العتاب: العتاب أدنى درجات اللوم، ولا يكون إلا بين الأصفياء من أحبب

أو أخلاء ومن ذلك قول الشاعر:

أُعاتبُ ذا المودة من صديقٍ إذا ما رابني منه اجتتابُ
إذا ذهب العتابُ فليس ود ويبقى الودُّ ما بقي العتابُ².

يكون مقام العتاب إذا فرط من المعتبر عليه شيء يكرهه العاتب فيعاتبه رغبة في «رجوع المعتبر عليه إلى ما يرضي العاتب»³، فهو بهذا يتضمن إنكار لما بدر من المعتبر عليه ولكن مرجع ذلك إلى العلاقة الوطيدة والخاصة التي بينهما - صداقة كانت أم حباً - وهذا ما يدفع

¹ - رياض الصالحين، ص78.

² - أوردهما ابن منظور في لسان العرب، مادة (عتب).

³ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (عتب).

بالعتاب إلى الترفق والتلطف في مقام العتاب والعتاب قد يكون باللفظ الصريح كما في قول الشاعر المذكور سابقا.

وقد يكون العتاب دون ذكر الألفاظ التي تدل عليه وهذا هو الأبلغ والأقوى تأثيرا في المخاطب، ويكون أقوى بلاغة حينما يرد بأسلوب الاستفهام لكون إخراج بصورة السؤال والجواب يبدو فيه المتكلم أنه في هذا المقام يستفسر فحسب عما بدر من المخاطب ليتقطن إلى الأمر، وهذا فيه من اللباقة والأدب إضافة إلى المحافظة على المشاعر وعدم إخراج الشخص الذي تعاتبه.

وعلى هذا جاء عتابه ﷺ للصحابة رضي الله عنهم في قوله: «أفلا كنتم آذتموني؟» والاستفهام هنا جاء بعد سؤاله ﷺ عن امرأة كانت تُعنى بأمر المسجد¹ في أمور التنظيف افتقدها الرسول ﷺ فلما سأل عن أمرها قيل له إنها ماتت فكان هذا الاستفهام عتابا لهم على تصغيرهم شأنها ثم قال لهم بعد ذلك أن دلوني على قبرها، فدلوه فصلى عليها رضي الله عنها ثم قال: «إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم»

5-14- تحديد المفاهيم وتصحيحها: في بعض المواقف يستدرج الرسول ﷺ الصحابة

ليوقفهم على خطأ فهمهم أو نقصه ويحدد لهم المفاهيم على ضوء الإيمان بالله وبرسوله هذا الإيمان الذي هدم الكثير من الأمور المألوفة المحايدة للحق فيسألهم رضي الله عنهم عن الأشياء المعهودة ويشعر الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيضيف شيئا ولذا هم يحترسون في إجاباتهم.

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال للصحابة: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيَّةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» فقال رجل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته»².

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قالوا: المفلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَا لَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ

* - هناك شك من الراوي إن كان هذا الحديث عن امرأة أم عن شاب.

² - رياض الصالحين، ص 367.

حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنَيْتُ حَسَنَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»¹.

أراد الرسول ﷺ في هذا الحديث أن يقدم للمفلس مفهوماً جديداً معنوياً وليس مادياً أما الصحابة رضي الله عنهم فقد احترسوا في الجواب بقولهم: (المفلس فينا) وكانهم أدركوا أن النبي ﷺ سيعطي مدلولاً للفظ غير ما يعهدونه.

يقول محمد الغزالي في هذا المفلس إنه كالتاجر الذي « يملك في محله بضائع بألف وعليه ديون قدرها ألفان، وكيف يُعدّ هذا المسكين غنياً؟.. والمتدين الذي يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادي الشر، كالح الوجه قريب العدوان، كيف يُحسب امرأً تقياً؟..»².

ومن ذلك أيضاً الحديث الذي رواه سهل بن سعد الساعدي، قال: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٌ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»³.

وأيضاً مثال ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيلُوا قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْعَرِيقُ شَهِيدٌ»⁴.

¹ - رياض الصالحين، ص 80.

² - محمد الغزالي، خُلق المسلم، ط 15. د ت، مكتبة رحاب، ص 12.

³ - رياض الصالحين، ص 87.

⁴ - المصدر نفسه، ص 322.

ومن ذلك أيضا الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟»، قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِرَيْتَبٍ فَإِذَا فَتَرْتُ تَعَلَّقْتُ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُلُّوهُ، لِيُصَلَ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ»¹.

يريد النبي ﷺ من هذا الحديث تعليم الصحابة وتعليمنا الاقتصاد في الطاعة حتى لا نتقطع لأن عبادة الله ﻋَظِيمٌ ليست بالكثرة وإنما بالكيفية التي نعبد بها الله ﻋَظِيمٌ ونطيعه ونتبع أوامره كما أراد لنا على منهج الرسول ﷺ وفي هذا قال الحافظ ابن حجر: «وفي هذا حث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق فيها»².

نلاحظ من خلال قراءتنا الأحاديث النبوية أن الرسول ﷺ كان يستعين في تعليم الصحابة وتوجيههم وإرشادهم بما يطرأ من أحداث، أو بما يمر بهم من مواقف عملية في الحياة اليومية فيتخذ منها أمثلة واقعية يستمد منها العبرة والحكمة التي يريد أن يوصلها إليهم، ولا شك أن هذا الأسلوب في التعليم أشد وقعا، وأعمق أثرا في النفس من مجرد النصيحة أو الموعدة التي تحدث دون أن تصاحبها مواقف عملية معينة تلفت النظر وتشد الانتباه.

5-18- التلطف والإيناس: يريد المتكلم أن يؤانس من يخاطبه، فيطرح عليه أسئلة يجره

بها إلى المحادثة، مع أن المتكلم عالم بجواب أسئلته، وكثيرا ما يرد أسلوب الاستفهام في الحديث النبوي إيناسا للمخاطب وتلطفا معه، وتسكينا لنفسه، وإراحة لصدره، في مقام يكون فيه المخاطب بحاجة إلى مواساة ومثال ذلك ما ورد عن عائشة (رضي الله عنها) في حديثها عن فاطمة (رضي الله عنها) حينما جاءت أباهما فأسر لها أمرا فبكت، ثم أسر لها الثانية فضحكت، فسألته عائشة (رضي الله عنها) عن سبب بكائها في المرة الأولى وضحكتها في المرة الثانية فأبّت أن تخبرها، فلما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى سألتها عائشة (رضي الله عنها) عن سبب بكائها وضحكتها فقالت (رضي الله عنها): أَمَا الْآنَ فَنَعَمْ أَمَا حِينَ سَارَنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَأَنَّهُ عَارِضُهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أُرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِيَ اللَّهَ وَاصْبِرْ، فَإِنَّهُ نَعَمَ السَّلْفُ أَنَا لَكَ، فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتُ

¹ - رياض الصالحين، ص 56.

² - ابن حجر، فتح الباري، ج 3، ص 37.

فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَتِي الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟» فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتَ¹.

ويرد أسلوب النداء مع أسلوب الاستفهام بغرض الإيناس، فالرسول ﷺ استعمل هذا الأسلوب ليسلي عن فاطمة (رضي الله عنها) وهذا ما فعله مع أم المسيب حين عاها في مرضها فقد ورد عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب، أو أم المسيب فقال: «مَالِكُ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيْبِ تُرْفِزِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَقَالَ: «لَا تَسْبِي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»².

5-19- الاستبعاد: وهو نمط بلاغي للاستفهام المجازي يوضح فيه المتكلم أن حدوث

أمر ما يكاد يكون متخيلاً أو مستحيلاً، وقد يجتمع الاستبعاد والتعجب في الاستفهام المجازي كما في قوله ﷺ: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» [هود: 72]، وهو «استبعاد من حيث أن الله أجرى الولادة في صغيرات السن من النساء وفي الشباب لذلك استبعدت ولادتها وتعجبت لشأن ذلك الاستبعاد..»³.

ومن المعاني التي يأتي من أجلها الاستفهام في البيان النبوي تصوير بُعد المستفهم عنه أن تصل إليه القدرة وإخراجه هذا الإخراج أتم تقريراً للبعد من مجرد الخبر.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ اتَّقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالتَّفْخِخِ فَيَنْفُخُ» فَكَانَ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»⁴.

ومثل ذلك أيضا ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: الآية 51] وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: الآية 172].

¹ - رياض الصالحين، ص 197.

² - المصدر نفسه، ص 414.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 281.

⁴ - رياض الصالحين، ص 128.

ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: يارب يارب ومَطْعَمَهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّي بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟¹ أي أستبعد حدوث الاستجابة.

ومن شواهد ذلك أيضا الحديث الذي رواه أبو سُرُوعَةَ عُبَيْةَ بْنِ الْحَارِثِ رضي الله عنه أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُبَيْةَ وَالتِّي قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا، فَقَالَ لَهَا عُبَيْةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكَ أَرْضَعْتِي وَلَا أَخْبَرْتِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ، وَقَدْ قِيلَ؟»، فَفَارَقَهَا عُبَيْةٌ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ²، «وفعلا فقد فارقتها عُبَيْةُ أَي طلقها ونكحت زوجا غيره»³ والنبي ﷺ في هذا المقام استبعد إمكانية اجتماعهما بعد ما قالتها المرأة، وبعد أن سرى ذلك في الناس وتحدثوا به.

5-20-تنشيط الذهن: تنشيط ذهن السامع ونفي الرتابة عن النص من مزايا أسلوب

الاستفهام، وهو بذلك يندرج ضمن الالتفات بمعناه العام، ومعنى الالتفات في مصطلح علماء البلاغة هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، ولهذا العدول أثر في إحضار المتلقي وإشراكه، لأن الكلام إذا ما نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان له أثر في إيقاظ السامع، ومنشطا لذهنه.

ورد الاستفهام لهذا الغرض في الحديث الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخرة الرَّحْلِ فقال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا»، ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق العباد على الله أن لا يعذبهم»⁴.

لما كان العلم الذي يريد النبي ﷺ أن يخبر به معاذ رضي الله عنه يحتاج إلى تنبه واهتمام جاء على صيغة الحوار ليكون معاذ أكمل استعدادا واشتياقا لتلقي الخبر والاهتمام به، فقدم النبي ﷺ

¹ - رياض الصالحين، ص442.

² - المصدر نفسه، ص176.

³ - ابن علان الصديق، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ط2. بيروت: 1996م، دار المعرفة، ج5، ص36.

⁴ - رياض الصالحين، ص131.

لذلك نداء معاذ مرتين لتأكيد الاهتمام بما يخبره به، فيبالغ ﷺ في تفهمه وضبطه، وقد ورد النداء في القرآن الكريم لأغراض كثيرة، وفي هذا يقول الزمخشري: «كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيهِ وعظاته وزواجره ووعيده واقتصاص من أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها»¹. وقد استعمل الرسول ﷺ أسلوب النداء، والنداء هو طلب إقبال المنادى بحرف من حروف النداء، وحروفه: (يا) للبعيد والقريب، وهي أكثر حروف النداء استعمالاً، ولا يقدر عند الحذف سواها، ولذا عدّها النحاة أمّ الباب، وأصل حروف النداء، ولم يرد في القرآن من حروف النداء إلا هي ونودي بها للبعيد والقريب، (والهمزة وأي) للقريب و(أ، وأي، وأيأ وهيا، وا) للبعيد وتختص (وا) بالندبة، وقد تستعمل للنداء المحض،² والأصل في الخطاب أن يبدأ المتكلم بالنداء تنبيهاً للمخاطب أن يصغي إليه، خاصة إذا كان أمراً ذا بال ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم يخص المخاطب.

5-21- الإخبار والتحقيق: يُستعمل الاستفهام أسلوباً من أساليب الإخبار، وهو يدخل في

طريقة الإعلام غير المباشر فالإخبار هو الإعلام بالشيء، ويستعمل لإثبات أمر ما، لذا ارتبط بالتحقيق في أسلوب الاستفهام لأنه يتجه إلى إطلاع السامع أو تثبيت خبر لديه، أو أنه يرمي إلى كليهما معاً كقوله ﷺ: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّبْنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْنَا فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: 18] والمعنى (إننا قد ربيناك فينا وليداً)³.

وكما يستعمل فيه غالباً (همزة الاستفهام)، كما ورد في المثال السابق فكذلك يستعمل فيه (هل) كما في قوله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1] والمعنى (قد أتى على الإنسان)⁴، ومن استعمالها مع النفي قوله ﷺ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: 40].

وقد كثر الاستفهام المتعلق بالإخبار في أحاديث الرسول ﷺ، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًّا أَوْ غِنًى مُطْغِيًّا

¹ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص96.

² - الأوسي قيس إسماعيل، أساليب الطلب، ص224.

³ - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص180.

⁴ - المرجع نفسه، ص194.

أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةَ أَذْهَى وَأَمْرٌ؟¹.

ونجد غرض الإخبار في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لِيِنَّ سَهْلٍ»².

ونجد هذا الغرض متضمن في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد سَعْدَ بِنَ عَبَادَةَ، وَمَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَانِ بِنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بِنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بِنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمَ بُكَاءَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا أَوْ يَرْحَمُ» وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ³.

جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من أسلوب الاستفهام وسيلة ناجحة وفاعلة في ذكر الكثير من الأخبار التي تهم المسلمين في دينهم ودنياهم في شتى الأغراض، والسر في ذلك أن الخبر إذا ذكر من خلال أسلوب الاستفهام، فإنه يستقر في الأعماق، ويرسخ في الأذهان، ويؤثر في المخاطب تأثيرا بالغا، إذ يجعل الاستفهام من المخاطب طرفا فاعلا في القضية المطروحة وفي الخبر المذكور وفي ذلك دلالة على أن المتكلم ضن بهذا الخبر، لأهميته لديه، ولذلك فهو لا يريد أن يذكر هذا الخبر ذكرا عابرا، فيذكره من خلال أسلوب الاستفهام.

من خلال هذا التحليل المبسط لهذه النماذج من الأحاديث النبوية يمكننا أن نستخلص مجموعة من النتائج وهي كالآتي:

- وجدنا أن أسلوب الاستفهام يألف كثيرا الأساليب الإنشائية الأخرى كالنداء والأمر والنهي ولكن أكثر ما يصحب الاستفهام منها ويأتي معه في سياق واحد هو أسلوب النداء، كما نجده يرد مع أسلوب التكرار، وهذا يجعله أسلوبا مرنا يألف سائر الأساليب الكلامية الأخرى.

- عمل الرسول صلى الله عليه وسلم على ابتكار أساليب تواصلية فعالة، حيث نجده ينوع هذه الأساليب بحسب المقام والسياق، مما يجعله يتجاوب مع النفس البشرية في أبعادها المختلفة

¹ - رياض الصالحين، ص 183.

² - المصدر نفسه، ص 186.

³ - نفسه، ص 249.

- والمتنوعة فمرة يخاطب في هذا السياق العقل، ويرشده إلى أعمال الفكر والنظر، والتفكر في الخلق واستتباط السنن الكونية، ومرة يخاطب فيه الروح بأشواقها وتطلعاتها، وآمالها وآلامها، ومرة يرشده إلى الاستدلال المنطقي، ومرة يفتح عينيه على البديهيات وغيرها من الأساليب مما جعل من الأحاديث النبوية منظومة تواصلية بالغة التأثير في المتلقي.
- تفاوتت المعاني البلاغية لأسلوب الاستفهام في رياض الصالحين من حيث الكثرة والقلّة فثمة معانٍ كثر ورودها في المدونة ومنها: التشويق، والتقدير، والإنكار، والحث والتعريض والنفي، وثم معانٍ قلّ ورودها في المدونة ومن هذه المعاني: الاستبعاد وهناك معانٍ لم ترد في المدونة ومنها: التحقير والتكثير.
- خلا كلام الرسول ﷺ من الاستفهام الإنكاري التذيبي، فشواهد الإنكار كلها من الإنكار التوبيخي، ولعل السرّ في ذلك أنّ إنكاره ﷺ أصحابه ﷺ إنما كان تعبيراً عن غضبه أو عدم رضاه عن سلوك صدر منهم، ما كان ينبغي أن يكون، وعلى ذلك فقصارى هذا الإنكار لا يعدو أن يكون توبيخاً، ولم يبلغ بهم الحال على أن يأتوا من الأفعال، فينكر عليهم بسببها إنكاراً إبطالياً تذييبياً.

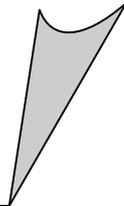
قمنا في هذا الفصل بدراسة بلاغية للأغراض المجازية التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام وحاولنا من خلاله الوصول إلى الإجابة عن سؤال مهم وهو: ما الجانب الذي نال اهتمام أكثر من طرف هذه الدراسة البلاغية لأسلوب الاستفهام؟

ووجدنا أن البلاغة اهتمت بجميع أقطاب العملية التواصلية من متكلم ومخاطب والرسالة المراد إيصالها إلى المخاطب، ولكن ما لم تتناوله الدراسة البلاغية هو الفعل التأثيري إذ لم نجد في هذا النوع من الدراسات البلاغية التي تتناول الأساليب الإنشائية جانب التأثير الذي يحدث في المستمع.

ولهذا أتبعنا هذا الفصل بفصل ثالث سنتناول فيه الاستفهام من المنظور التداولي محاولين الوصول إلى الإجابة عن أسئلة مفادها: ما جوانب الخطاب التي تهتم بها الدراسة التداولية في تناولها أسلوب الاستفهام؟ وهل تأتي التداولية بالجديد الذي يضاف إلى الدراسة النحوية والبلاغية؟ وهل تهتم التداولية بجميع أقطاب العملية التواصلية؟ وهل يستطيع التحليل التداولي أن يقف على مضامين نص الحديث النبوي ويكشف عما توحى به من معانٍ؟

الفصل الثالث

الاستفهام من المنظور التداولي



تساءلنا في نهاية الفصل السابق أسئلة مفادها: ما هي جوانب الخطاب التي تهتم بها الدراسة التداولية في تناولها أسلوب الاستفهام؟ وهل تهتم التداولية بجميع أقطاب العملية التواصلية؟ هل يستطيع التحليل التداولي أن يقف على مضامين نص الحديث النبوي ويكشف عما توحى به من معانٍ؟

أيمكن اعتبار هذه القراءة التي توظف الإجراءات التداولية لقراءة النص بمثابة إعادة قراءة للتراث عموماً ونص الحديث النبوي على وجه الخصوص؟ يأتي المنهج التداولي ليعطينا بعض الأسس والآليات التي تمكننا من تحقيق دراسة وافية للخطاب، وقبل التطرق إلى أهم آليات التحليل التداولي لابد لنا من وقفة موجزة نسعى من ورائها إلى التعريف بالتداولية كمنهج ظهر حديثاً عند اللغويين الغربيين يمكن الاستعانة به في مجال تحليل نص الحديث النبوي.

1- تعريف التداولية La pragmatique

التعريف اللغوي: يرجع المصطلح إلى مادة (دَوَّل)، وقد ورد في لسان العرب: «دَوَّلَ: الدَّوَّلَة والدَّوْلَة العقبة في المال والحرب سواء، والدولة اسم الشيء الذي يُدَوَّل، دالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس، دواليك: ما تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة وهذا دولة، وقولهم دواليك أي تداولوا بعد تداول»¹.

وخلاصة هذا المفهوم اللغوي، أنّ مجالات استعمال كلمة تداولية تعني: التحول والانتقال من حال إلى أخرى، ويعني هذا المشاركة والتفاعل، وهذا قريب من مفهوم التداولية التي تعنى بالتفاعل بين المتكلم والمتلقي، فاهتمامها ينصبّ على دراسة العلاقة بين المتكلم والسامع، بكل ما يعترى هذه العلاقة من ملابسات وشروط مختلفة؛ حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوق اللغوي وعملية الاتصال بين المتكلمين والتفاعل بينهم.

التعريف الاصطلاحي: تعرّف التداولية أو كما يسميها بعض الدارسين بالبرغماتية بأنها دراسة المعنى والاستعمال اللغوي، بالنظر إلى المتكلم والمتلقي، وعوامل أخرى تتعلق بسياق الكلام.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج2، مادة [دَوَّل].

تعدّ التداولية مبحثاً من مباحث الدراسات اللسانية التي تطورت خلال فترة السبعينات من القرن العشرين وهي تدرس عملية التواصل بين أفراد المجتمع وإنتاجهم لأفعال تواصلية في مواقف كلامية محددة¹.

وقد ظهر مصطلح التداولية الذي يعرف في الغرب بـ (Pragmatique) أول مرة في سنة 1938م على يد الفيلسوف الأمريكي شارل ويليام موريس (Charles William Morris) في مقال كتبه لموسوعة علمية يحدّد فيها مختلف الطرائق التي تعالج اللغة، وهي علم التركيب المتمثل في علم النحو الذي يتوقف عند دراسة العلاقة بين الوحدات اللغوية، وعلم الدلالة الذي يعالج الدلالة اللغوية، ثم التداولية التي تهتم بالعلاقات القائمة بين الأدلة ومستعملها، وأنت التداولية لتعنى بتحليل العلاقة بين النص ومستعملي اللغة أي الجانب التواصلية، لأنّ هذا الجانب ظل مستبعداً من قبل اللسانيين الذين ركّزوا في دراستهم على علم التراكيب وعلم الدلالة «فاللغة لا يمكن أن تنعزل عن استخدامها وتنحصر في علمي النحو والمعاني، بل إن الاتصال يلعب دوراً فاعلاً إذا أردنا أن نفهم حقيقة اللغة»².

ومن المهمات الأساسية للتداولية هي إبراز النشاط التفاعلي للغة، وبالأخص التفاعل في العملية التواصلية، ولكن هناك شروطاً يجب أن تتوفر لكي يتحقق هذا التفاعل وهذه الشروط هي شروط اجتماعية وإدراكية، كما يجب أن يتحدد الحديث بحدود زمانية ومكانية محددة أيضاً لتحقق هذا التفاعل.

وتكمن وظيفة التداولية كما ذهب إلى ذلك أوركينيوني « في استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذّر في إطاره الذي يشكل الثلاثية الآتية: المرسل، المتلقي، والوضعية التبليغية، إن أي تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة»³.

جاءت التداولية لتجيب عن مجموعة من الإشكاليات التي تمثل موضوعاً لها مثل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ من يتكلم إن؟ وإلى من يتكلم؟ ولأجل من؟ وماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ وكيف نتكلم بشيء ونريد آخر؟

¹ - مقبول إدريس، "التداولية عند سيبويه"، مجلة عالم الفكر، 2004م، ع3، ص245.

² - الرويلي ميجان، والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط3. الدار البيضاء: 2002م، المركز الثقافي العربي، ص169.

³ - فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسين بحيري، ط1. مصر: 2001م، دار القاهرة

للكتاب، ص114.

وهل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟¹، هذه جملة من الأسئلة التي حاولت فرانسواز أرمينيكو (Françoise Armingaud) الإجابة عنها في كتابها المقاربة التداولية. إن أسمى مبدأ تهتم به التداولية هو مبدأ التعاون على استمرار العملية التواصلية (استمرار الحديث) من خلال المساهمة والمشاركة في الحدث الكلامي المتواصل، كما يعد مبدأ التأدب مبدأً مهمًا لأنه يفرض على المتحدثين احترام بعضهم بعضاً في الكلام. وُجِّهت إلى التداولية عدّة انتقادات، ومن ضمن هذه الانتقادات أنها نظرية غير واضحة الملامح والحدود، حيث إنّها لا تمدنا بحلول واضحة لبعض المسائل التي تطرحها، كما أنّها تتناول مواضيع سبق أن تناولها علم الدلالة، كالمعنى مثلاً، وهذا غير صحيح لأن التداولية تدرس المعنى ضمن السياق اللغوي.

تشهد التداولية عند الدرسين العرب المحدثين حركية بدأت بترجمة آخر ما توصلت إليه الحركة التداولية عند الغرب، وكذا الاهتمام بقضية المصطلح التي يحاول الدارسون العرب المحدثون إرساء قواعد علمية دقيقة تتحكم في ترجمة المصطلحات وإدماجها في الاستعمال العربي المتخصص، ويعد طه عبد الرحمن أول من استعمل مصطلح "التداولية" في اللغة العربية²، والذي يقابل في اللغة الفرنسية "Pragmatique" وفي اللغة الانجليزية "Pragmatics". وهناك من يطلق عليها مصطلح الذرائعية وأيضاً مصطلح علم التخاطب، إضافة إلى هذه الجهود نجد أن هناك إعادة قراءة للتراث واستخلاص الآراء التداولية الموجودة في كثير من مصادر التراث العربي القديم.

2- أهمية الدراسة التداولية:

أنت التداولية لتساوي بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام، واهتمت بالخطاب لكونه إنتاجاً لغوياً ينظر إليه في علاقاته بظروفه المقامية والسياقية، واهتمت أيضاً بالوظيفة التواصلية التي تؤديها في هذه الظروف، فقد أولت التداولية لأقطاب العملية التواصلية أهمية كبيرة فاهتمت بالمتكلم ومقاصده بوصفه عنصراً فاعلاً في عملية التواصل، وأيضاً منحت للظروف السياقية أهمية بوصفها عناصر مساعدة في تأدية هذه المقاصد، كما عوّلت كثيراً على استغلال المتكلم للظروف السياقية في سبيل الوصول إلى المعنى الذي قصده المتكلم.

¹ - ينظر: أرمينيكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ط1. الرباط: 1986 م، مركز الإنماء القومي ص7.

² - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2. الدار البيضاء: 2000م، المركز الثقافي العربي، ص18.

3- آليات التحليل التداولي:

عنيت الدراسة التداولية بجوانب الخطاب المختلفة، وتتمثل هذه الجوانب في الإشارات والافتراض المسبق، والاستلزام الحوارية، والأفعال الكلامية والتي سنتطرق إلى كل منها بتعريف موجز في هذا المبحث النظري.

3-1- الإشارات Deictics: وهي « تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع

التفريق الأساسي بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التغييرات الإشارية البعيدة عنه»¹.

ويرى بعض الباحثين أن (أل) التي للتعريف تدخل في العناصر الإشارية مثل أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وظروف المكان والزمان التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، لذلك كان العرب يطلقون عليها مصطلح «المبهمات»²، إلا أنها عامل مهم في تكوين بنية الخطاب لما لها من أهمية كبيرة في الإحالة إلى المعلومات، وتنقسم الإشارات إلى أنواع هي:

– الإشارات الزمانية: وهي كلمات تدل على زمن يحدده السياق بالقياس إلى زمن التلفظ ومعرفة زمن التلفظ يُزيل اللبس عن الخطاب وعدم وجودها يجعل الأمر يلتبس على القارئ أو السامع.

– الإشارات المكانية: وهذه العناصر تشير إلى الأماكن وتعتمد في استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، الذي يكون معروفا لدى السامع، وهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه.

– إشارات الخطاب: وتتمثل في العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم مثل: ومهما يكن من أمر، لكن، بل، فضلا عن ذلك، من ثم.

– الإشارات الاجتماعية: وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين، من حيث هي علاقة رسمية أو غير رسمية، والأولى يدخل فيها صيغ التبجيل فتشمل الألقاب، والثانية تشمل النداء بالاسم المجرد.

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ط1. ليبيا: 2004م، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص81.

² - ينظر: عيد بليغ، "التداولية، البعد الثالث في سيموطيقا موريس"، مجلة فصول، 2005م، ع 66، ص41.

3-2- الافتراض المسبق: (Présupposition):

يوجه المتكلم حديثه إلى المخاطب على أساس مما يفترض سلفاً أنه معلوم له، فإذا قال شخص لآخر: أغلق النافذة فالمفترض سلفاً أن النافذة مفتوحة وأن هناك مبرراً يدعو إلى إغلاقها وأن المخاطب قادر على الحركة، وكل هذا موصول بسياق الحال وعلاقة المتكلم بالمخاطب.

كما تشير أداة التعريف إلى ما يسمى بالمعلومات السابقة بينما تؤدي أداة التنكير وظيفية الإشارة إلى معلومات لاحقة أي إلى وحدات لغوية لم يوضحها المتكلم بعد، فالتعريف يعتمد على ما يفترضه المتكلم من علم السامع عن هذه الوحدات اللغوية شيئاً أو لا يعرف أي أمر منها يراد بين أمور عديدة، وقد لا تكون معروفة عند المتكلم أيضاً¹.

ويميز الباحثون بين نوعين من الافتراضات المسبقة الأول: وهو المنطقي أو الدلالي والثاني: التداولي، والأول يستلزم أن تكون الجملتان صحيحتين (الجملة المحكية والجملة المفترضة) أما الثاني فلا دخل له بالصحة من عدمها.

3-3- الاستلزام الحواري:

يستعمل المتكلم آلية لا يرتبط فيها اللفظ والقصد برابط لغوي، بل يرتبط ببيان القصد على إسهام عناصر السياق الموظفة فالمتلقي لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن وأضرب الاستدلال العقلي، كأن يرد المخاطب على السائل رداً لا يصلح حرفياً أن يكون جواباً عما سئل عنه في مقام التعريض، وهو المصطلح عليه بالاستلزام الحواري².

وقد نشأت هذه الفكرة عند غرايس نتيجة لتفرقة بين المعنى الصريح للجملة وبين ما تحمله من معنى متضمن فيها وهو بذلك يفرق بين نوعين من الاستلزام الحواري³ وهما:

– الاستلزام العرفي: وهو قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلف بها السياق وتغيرت التراكيب.

¹ - أحمد محمود نحلة، التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، د.ط. القاهرة: 1999م، مكتبة زهراء الشرق ص81.

² - نعمان بوقرة، "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية، قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية"، مجلة اللغة والأدب، ع17، ص199.

³ - أحمد محمود نحلة، التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل، ص33.

– الاستلزام الحواري: وهو يتغير بتغير السياق الذي يرد فيه، فحين يقال كم الساعة فإن مقصد المتكلم يختلف حسب السياق الذي وردت فيه الجملة، فقد يكون سؤالاً وقد يكون توبيخاً للتأخر.

وقد تساءل غرايس في إمكانية أن يقول المتكلم شيئاً ويعني شيئاً آخر، ثم كيف يمكن أيضاً أن يسمع المتلقي شيئاً ويفهم شيئاً آخر؟ فكانت نتيجة هذا التساؤل أن وضع غرايس مفهوم «مبدأ التعاون» بين المتكلم والمخاطب وهو مبدأ حوارى عام يقول «ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه الحوار، بما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار»¹.

وقد تفرع عن هذا المبدأ المبادئ التالية:

- مبدأ الكم: يجب أن يكون الحوار مناسباً من غير زيادة أو نقصان.
- مبدأ الكيف: لا ينبغي قول ما هو غير صحيح أو ما ليس فيه دليل عليه.
- مبدأ المناسبة: مناسبة الكلام للموضوع.
- مبدأ الطريقة: أي الوضوح والتحديد مع تجنب الغموض، واللبس والقيام بالإيجاز وترتيب الكلام².

3-4- المقاصد: إن غاية قصد المرسل هي إفهام المتلقي، ولحصول هذا الإفهام يجب أن يكون مدركاً للمستويات الدلالية للغة المتداولة، فالمقصد يحدد الغرض من أي فعل لغوي، إذ إن المتكلم يحدد الهدف من أفعاله اللغوية، مما يساعد المتلقي على فهم الرسالة، بهذا يصبح توفر القصد والنية الشرط الأساسي لنجاح العملية التواصلية.

فاللغة إذن هي تعبير المتكلم عن مقصوده، وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله: «اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانی ناشئ

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص181.

² - آن روبرول وجاك موشلار، التداولية اليوم، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1. بيروت: 2003م دار الطليعة، ص55.

عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها»¹.

يهدف مبدأ القصدية إلى الكشف عن غاية الأدوات الإجرائية في التداولية، فالجرجاني يربطه بالمتكلم باسم: (معاني النفس) ويربطها بغرض المتكلم الذي له الدور الفعال في التنضيد والرصف فقد يوجب تقديمًا أو تأخيرًا، أو حذفًا، أو وصلًا أو فصلًا².

وقد تعرض الجاحظ إلى المقاصد، حيث رأى أنّ من شروط التواصل الناجح أن يراعي المتكلم مخاطبه فلا «يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة»³، ثم ذهب إلى أنّه: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار السامعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ولكل حالة من ذلك مقامًا»⁴.

ومنه نستنتج أنّ القصدية ترتبط بالمخاطب كما ترتبط بالمتكلم، وذلك لكونه طرفًا أساسيًا في العملية التواصلية.

3-5- الأفعال الكلامية Les actes des paroles: تعتبر نظرية أفعال الكلام من

الموضوعات الأساسية للسانيات التداولية، وأفعال الكلام هي أفعال ينجزها الإنسان بمجرد التلفظ بها في سياق مناسب، بجملة يعبر بها عن مدلول إنجاز ذلك العمل، وتستعمل أفعال الكلام في مواقف تعبيرية معينة حسب سياق التلفظ، مثلًا للاعتذار، أو الطلب، أو الأمر، أو التمني، أو غيرها، والأفعال الكلامية تقتضي لتحقيقها توفر شرطين مهمين هما: الاستعمال المناسب للغة والمعرفة اللغوية، أي أن أفعال الكلام تتحقق من خلال استعمال اللغة وفق قواعد معينة، وهي كما يرى أوستين Austin مركب من ثلاثة أفعال تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر:

– **فعل الكلام (فعل القول) Acte locutoire**: يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح⁵، ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي و له مرجع يحيل إليه ويشتمل بدوره

¹ - عبد الرحمن أبو زيد ابن خلدون، كتاب المقدمة المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، د. ت. تونس، الجزائر: 1984م، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، ج2 ص 712.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص118.

³ - عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص95.

⁴ - المصدر نفسه، ص131.

⁵ - J.L. Austin, Quand dire c'est faire, Traduction Gillet Lane, Edition du seuil, Paris, 1970, p109.

على أفعال لغوية فرعية صغرى وهي: الفعل الصوتي Acte phonetique والفعل الانتباهي أي التركيبي Acte phatique والمستوى الدلالي Acte rehetique.

– **الفعل الكلامي (الإنجازي) Acte illocutoire:** «وهو عمل ينجز بقول ما»¹ وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي كالتحذير من عمل شيء أو رجاء عمل شيء، أو استفهام عن شيء، ويسمي أوستين الوظائف الكامنة خلف هذه الأفعال بالقوى الإنجازية، فالفرق بين فعل الكلام والفعل الكلامي أن الأخير هو قيام فعل ضمن قول شيء ما، أما الأول فيعني مجرد قول، إذا فالفعل الكلامي الإنجازي يتعلق بتحقيق بمقاصد المتكلم².

– **الفعل التأثيري Acte Parlocutif:** ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع (أن يسعد، أن يغضب..)، إذ يرى أوستين أن الفاعل بعد قيامه بكل من فعل الكلام والفعل الكلامي الإنجازي فإنه يتسبب بحدوث فعل ثالث هو الفعل التأثيري، مثل الإقناع والإرشاد والتضليل والتحفيز وغيرها، كما قدم أوستين تصنيف الأفعال الكلامية على أساس قوتها الإنجازية إلى:

- 1- **حكمية:** وتقوم على الإعلان عن حكم تأسس على البداهة.
- 2- **التمرسية:** تقوم على إصدار قرار لصالح أو ضد سلسلة أفعال مثل: قاد، دافع عن، ترجى طلب ... إلخ.
- 3- **تكليفية:** ويلتزم فيها المتكلم بأفعال محددة مثل الوعد.
- 4- **العرضية:** تستعمل لعرض مفاهيم وبسط موضوع مثل أنكر، أكد ... إلخ.
- 5- **السلوكيات:** يتعلق الأمر بردود فعل اتجاه سلوك الآخر³.

ومما قدمه سيرل Searle أنه أعاد اقتراح تقسيم آخر للأفعال الكلامية، بعد أن لمس بعض الاضطرابات في تصنيف أوستين، ويميز بين أربعة أقسام⁴:

- فعل التلفظ (الصوتي والتركبي) أي الفعل المتحقق.

¹ - J.L. Austin, Quand dire c'est faire, p113.

² - الجليلي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، د ط. الجزائر: 1992م، ديوان المطبوعات الجامعية ص24.

³ - أرمينكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ص62.

⁴ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص99.

- الفعل القضوي (الإحالي والجملي) أي أفعال قضوية.
- الفعل الإنجازي (على نحو ما فعل أوستين) الفعل القسدي.
- الفعل التأثيري (على نحو ما فعل أوستين).

فأعاد تصنيف الأفعال اللغوية على ثلاثة أسس منهجية هي:

- الغرض الإنجازي.

- اتجاه المطابقة.

- شرط الإخلاص.

وقد جعل سيرل الأفعال الكلامية خمسة أصناف¹.

- التقريريات Assertifs وتقابلها عند أوستين الحكميات Verdictifs.

- الأمرات Directifs وتقابلها عند أوستين الأمرات Exercitifs.

- الوعديات Promissifs وتقابلها عند أوستين نفس المصطلح.

- البوحيات Expressifs وتقابلها عند أوستين السلوكيات Comportatifs.

- الإيقاعات Déclaratifs وتقابلها عند أوستين التبيينات Expositifs.

3-6- الأفعال الإنجازية: الفعل الإنجازي هو فعل ناتج عن الفعل الإنجازي الحقيقي

وهو القيام بفعل ضمن قول شيء والفعل الإنجازي يحدث أثراً معيناً على المخاطب كأن يستجيب المخاطب مثلاً لأمر ما كإغلاق نافذة، أو فتح باب، وبهذا يكون هناك فعل تأثيري، إذن الفعل التأثيري هو الفعل بواسطة القول².

فالفعل الإنجازي، هو ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد والتحذير والأمر والنصح، وقد أدرك أوستين أنّ الفعل الإنجازي هو الأهم في اللسانيات التداولية فوجه إليه اهتمامه وجعله لبّ هذه النظرية (الأفعال الإنجازية).

¹- مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة: 2003 - 2004 م، ص96.

²- طالب هاشم الطبطباني، "نظرية الأفعال الكلامية"، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت: 1992م، مركز الإنماء القومي، ع 98، ص66.

كما ميّز سيرل بين الأفعال الإنجازية المباشرة والأفعال الإنجازية غير المباشرة، فبيّن أن الأفعال الإنجازية المباشرة هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم (مطابقة القول للمعنى) أمّا الأفعال الإنجازية غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم¹ ويتوصل إليها المتلقي بعد إجراءات عمليات ذهنية استدلالية.

ويرى سيرل أن أهم الدوافع لاستعمال الأفعال الإنجازية غير المباشرة هو التأدب في الحديث²، فالأفعال الإنجازية عنده لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي، وإنما الزيادة فيها أطلق عليه معنى المتكلم، وأن السامع يصل إلى هذا المراد من خلال مبدأ التعاون الحواري عند غرايس.

4- الأساليب الإنشائية من منظور النظرية التداولية:

ضمّن أوستن مبحثه نظرية الأفعال اللغوية شروط استعمال الأساليب الإنشائية في سياقات الأحاديث المختلفة لأنها تحمل معنى الفعل، ونظراً لدورها الفعّال وقدرتها على الإبلاغ وتحقيق الفهم فقد أولتها بعض الدراسات المعاصرة عناية كبيرة، وقد ذهبت إلى اعتبار الأساليب الإنشائية من أهم الوسائل التداولية التي تتوسلها اللغة لتثير الرغبة والإحساس كما أنها صالحة للتأثير في العامة في مجال الوعظ والإرشاد³.

ومنه، تصبح وظيفة النص الانتقال بالمتلقي من وضع إلى آخر طلباً للتغيير وبهذا فإن تحليل النص اللغوي وفق نظرية الأفعال الكلامية يحدو بنا إلى الاهتمام بجميع الوظائف التي تؤديها العبارات اللغوية والنصوص ضمن بناء لغوي معين، فاستعمال الأساليب الإنشائية في أي نص ما يجعله يؤدي وظيفة أساسية هي التغيير أو الانتقال بالمتلقي من حالة إلى أخرى وذلك من خلال جملة الوظائف الثانوية التي تؤديها الأساليب الإنشائية.

كنا قد تحدّثنا في الفصلين السابقين عن أسلوب الاستفهام في إرادته المعنى الأصلي الذي استقل به من الجانب النحوي، وبعدها تطرقنا إلى ما يخرج إليه من معانٍ أخرى بحكم السياق والاستعمال من الجانب البلاغي، ونود من خلال هذا المبحث أن نعرف الكيفية التي تنتظر بها التداولية إلى أسلوب الاستفهام؟

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. ط. الإسكندرية: 2002 م، دار المعرفة الجامعية ص51.

² - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص51.

³ - أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، دار الفكر العربي، د. ط. القاهرة: 1996م، مطبعة الرسالة، ص20.

5- الاستفهام من منظور مباحث التداولية:

لقد كان الأسلوب الاستفهامي كغيره من الأساليب الطليبية محلّ اهتمام الدراسيين المعاصرين حيث ذهب أحدهم ويدعى (كولينجوود Collinjuwod) إلى التركيز على دلالات الاستفهام، إذ لاحظ هذا الدارس أهمية السؤال في حياتنا الثقافية فإذا كانت كل معرفة في حقيقتها مجردّ جواب على سؤال معين، فإن الفعل الاستفهامي أو إثارة السؤال هو الفعل الأكثر أهمية ضمن الأفعال اللغوية¹

كما يعتبره آخرون من الآليات اللغوية التوجيهية « بوصفها توجّه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عليها، ومن ثم فإن المرسل يستعملها للسيطرة على مجريات الأحداث، بل وللسيطرة على ذهن المرسل إليه، وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل لا حسب ما يريده الآخرون...»².

ويجد الدارس لعلم التداولية أن أسلوب الاستفهام من الآليات اللغوية المستعملة ضمن المباحث الرئيسية لهذا العلم، وسنتطرق إلى استعمال هذا الأسلوب ضمن كل مبحث على حدة.

5-1- الإشارات: تعتبر الإشارات الاجتماعية صنفاً من أصناف الإشارات، وهي

ألفاظ وتراكيب تشير إلى نوع العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة غير رسمية فنحن نستعمل في حياتنا اليومية أسئلة ليس الغاية منها توجيه المرسل إليه لإنجاز فعل في المستقبل لكنها توجهه إلى التلفظ بخطاب جوابي فقط، ومثال ذلك الأسئلة التي نسأل بها عن الصحة، والحال والتي تحمل وظيفة تداولية تتمثل في التضامن والتقريب بين طرفي الخطاب.

كذلك يستعمل هذا الأسلوب لتحقيق مبدأ التآدب حين يكون الكلام موجهاً إلى شخص له سلطة أو مكانة فمثلاً حين يريد طالب التحدث مع أستاذه خارج المحاضرة فإنه يستعمل صيغة: «أيمكن أن تمنحني دقيقة من وقتك»، أريد أن أستشيرك في مسألة؟ في حين أنه لا يطلب ذلك من زميل أو صديق لأنه قد يقول له بصيغة الأمر: «انتظر لحظة أريد أن أستشيرك في أمر يهمني».

¹ - محمد أدويان، "نظرية المقاصد بين حازم القرطاجني ونظرية الأفعال اللغوية المعاصرة"، مجلة الوصل

معهد اللغة العربية وآدابها، تلمسان: 1994م، ع1، ص 41، ص42.

² - ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص123.

5-2- الافتراض المسبق: لأي خطاب كان رصيد من الافتراضات المسبقة مستمدة من المعرفة العامة وسياق الحال «وهذه الافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلمون، وهي تشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية (التبليغية) وهي محتواة في القول، سواء تلفظ بهذا القول إثباتاً أو نفيًا»¹، ومثال ذلك أن يسأل شخص شخصاً آخر كيف حال زوجتك؟ وأولادك؟ إن هذا يفترض بأن الطرف الآخر متزوج وله عائلة كما أن العلاقة الاجتماعية التي تربطهما تسمح للطرف الأول إلقاء مثل هذا السؤال، وبذلك يرد الطرف الآخر: هي بخير شكراً أو الأطفال في عطلة.

إن الافتقار إلى مجموع الافتراضات المسبقة الضرورية للتبليغ يمكنه أن يكون سبباً في فشل العملية التواصلية وهذا يؤدي إلى سوء الفهم، فمثلاً في المثال السابق إذا كانت الخلفية الإخبارية غير مشتركة بين الطرفين فإن الطرف الآخر قد يجادل في السؤال، أو يدلي بالخبر الضروري، أو يرفض الإجابة عن السؤال أو يحاول أن يتهرب كأن يقول أنا لا أعرفكم، أو أنا لست متزوجاً ... إلخ.

5-3- الاستلزام الحواري: يرى جرايس أن الاستلزام نوعان: الأول عرفي، والآخر حواري، ويستعمل أسلوب الاستفهام في الاستلزام الحواري كونه يتغير دائماً بالسياقات التي يرد فيها، كان غرايس يرمي من خلال إرسائه لمفهوم «مبدأ التعاون» إلى أن الحوار بين البشر يجري وفق ضوابط كما تحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم، فحين يسأل زوج زوجته: أين مفاتيح السيارة؟ فتجيب: على الطاولة، نجد أن مبادئ التعاون قد تمثلت في هذا الحوار إذ أجابت الزوجة إجابة واضحة من حيث الطريقة وصادقة من حيث الكيف، كما أنها استخدمت القدر المطلوب من الكلمات من حيث الكم، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها من حيث المناسبة لذلك لم يتولد عن قولها أي استلزام².

أمّا خرق مبادئ الحوار فإنه يولد الاستلزام³، فمثلاً حين تقول أم لولدها أتشعر بالنعاس؟ فيجيب: لا أرغب في تنظيف أسناني⁴، فإننا نجد الطفل قد أجاب إجابة غير مناسبة عن السؤال

¹ - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص34.

² - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص35.

³ - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، ط1. الدار البيضاء: 1986م، دار الثقافة، ص95.

⁴ - آن روبرول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ص61.

ولكن ما الذي جعل الطفل يخرق هذا المبدأ؟ وفق مبدأ التعاون نجد أنّ الإجابة تستلزم رفض الطفل النوم لعدم رغبته في تنظيف أسنانه.

4-5- المقاصد: يستعمل أسلوب الاستفهام أيضا في معرفة مقاصد الآخرين من خطباتهم، فكثيرا ما نسأل الطرف الآخر في الحوار: ماذا تقصد من كلامك؟ ماذا تعني بقولك كذا وكذا؟ إلى ماذا تهدف بتصرفك هذا؟ وهذا ما يضطر الآخرين إلى تبرير تصرفاتهم أو أقوالهم « فبدون معرفة المقاصد لا يمكن أن يستدل بكلام المتكلم على ما يريد، لأن المواضعة وإن كانت ضرورية لجعل الكلام مفيدا فهي غير كافية، إذ لا بد من اعتبار المتكلم أي قصده»¹ فالقصد بوصفه المعنى ضروري لإنجاز أفعال لغوية متعددة في سياقات متنوعة، بخطاب ذي شكل لغوي واحد مثل خطاب الاستفهام.

وتتجلى المقاصد من خلال التعبير بأسلوب الاستفهام، مثلا من خلال التعبير بالهمزة، فحين تنصدر الهمزة الفعل فإن الشك في الفعل نفسه، أما إذا تصدرت الاسم فإن الفاعل هو مدار الشك، كما أن ورود الهمزة مع الفعل الماضي يختلف عن ورودها مع الفعل المضارع، ففي الحالة الأولى يكون غرض المتكلم تقرير المخاطب، وهو الغرض المقصود من ورود الهمزة مع الفعل المضارع الدال على الحال، أما في الحالة الثانية وهي ورود الهمزة مع الفعل المضارع الدال على المستقبل فالغرض منه الإنكار.

5-5- الأفعال الكلامية: تنقسم الأفعال اللغوية من حيث دلالتها على القوة الإنجازية المقصودة إلى قسمين هما: الأفعال اللغوية المباشرة والأفعال اللغوية غير المباشرة، وتعتبر أدوات الاستفهام من أكثر الأدوات استعمالا لإنجاز الأفعال اللغوية مثل:

- أَحْضَرْتَ النَّدْوَةَ؟

- أَنَا أَسْأَلُكَ أَنْتَ عَنِ حَضُورِ النَّدْوَةِ.

رغم أن كل من المثالين يحقق القصد، ويحمل نفس مضمون الخطاب، إلا أنّ المثال الأول يستعمل فيه المرسل الخطاب إستراتيجية مباشرة ولكن بألية مختلفة وهي أداة الاستفهام (الهمزة الاستفهامية).

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 197.

إن استعمال هذه الآلية حسب أوستن تساعد المرسل إليه على فهم القصد كما أن استعمالها يزيل شبهة الخلط بين الصيغ الخبرية والإنشائية¹ وهذا عامل يساعد على إزالة اللبس وإدراك القصد.

5-6-الإنجاز: يخرج الاستفهام في كثير من الحالات عن مراده الحقيقي، والمتمثل في طلب الإفهام ولكونه طلب ارتسام صورة ما في الخارج في الذهن لزم أن لا يكون حقيقة، إلا إذا صدر من متشكك مصدق بإمكان الإعلام فإن غير متشكك إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتقت عنه فائدة الاستفهام إلى انجازات أخرى يتحول بموجبها من استفهام حقيقي إلى استفهام بلاغي².

وهذا الاستفهام البلاغي لا يهدف المرسل من خلاله إلى الحصول على إجابة، بل يهدف منه تحدي المخاطب أن يستطيع الإنكار أو حتى الإجابة، فخرج الاستفهام الحقيقي إلى الاستفهام البلاغي يهدف إلى تحقيق أفعال إنجازية، وهذا يقتضي من المخاطب ألا يقوم بقراءة حرفية للمفوض.

وتظهر القوة الإنجازية الاستفهامية للسؤال البلاغي ضعيفة، لتحل محلها قوة إنجازية أخرى كالنقيرير أو الأمر مثلا، كما علينا أن نشير إلى أن الاستفهام قد يظهر بصورتين، فإما أنه يُطرح مباشرة (مثلا يكون حرف الاستفهام في بداية الجملة)، أو أنه يأتي بصيغة إخبارية تتحدث عن وقوع السؤال، (السؤال يكون متضمنا).

حاولنا أن نبسّط بعض المفاهيم التداولية، باعتبارها إجراءات وآليات توظف في التحليل التداولي، قبل أن نجعل من بعضها آليات نعتمدها في تحليل الأحاديث النبوية المشتملة على أسلوب الاستفهام.

6- الأفعال الكلامية في الأحاديث النبوية "دراسة وفق تصنيفات سيرل":

سنحاول الكشف عن الدور الذي تؤديه الأفعال الكلامية في إحداث الإقناع والتأثير، ولقد ارتأينا اختيار مجموعة من الأحاديث حتى تكون نموذجا للتحليل، وسيكون اختياري للأحاديث وتحليلها وفق تقسيم سيرل أي الأحاديث التي تحتوي تقريرات، ووعديات وأمريات وإقاعات وبوحيات.

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 139.

² - السيوطي جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، ج 1، ص 79.

تعتبر الأفعال الكلامية من أهم المرتكزات في التحليل التداولي، وتعرف بأنها أصغر وحدة تحقق فعلا عن طريق الكلام بإصدار أمر، أو توكيد، أو وعد ... الخ والذي من شأنه إحداث تغيير في وضعية أو موقع المتكلمين، بحيث يتوقف فك شفرته على إدراك المتلقي للطابع القصدي لفعل المتكلم، وهذا يعني أنه بمجرد النطق بأفعال الكلام تتحول هذه الأفعال إلى إنجاز للفعل، لأنه لا يوجد من وسيلة أخرى يمكن أن يقوم بها الشخص مثلا بفعل الأمر، أو التوكيد أو الطلب سوى أن ينطق بصيغة الأمر أو التوكيد أو الطلب «فكلما أدى الفرد فعلا كلاميا فإنه يعبر بذلك عن حالة نفسية تجاه القضية المعبر عنها، فمن يقرر فهو يعبر عن اعتقاد، ومن يعد فهو يعبر عن نية ومن يصدر أمرا فهو يعبر عن رغبة أو إرادة»¹.

وقد يتكون فعل الكلام من كلمة واحدة أو أكثر، مثلا للشكر نقول كلمة: (شكرا) أو (شكرا على كل شيء)، والأفعال الكلامية لكي تتحقق يجب توفر المعرفة اللغوية، أضف إلى الاستعمال المناسب للغة حسب الثقافة الخاصة بتلك اللغة، وبالتالي يحقق الناس أفعال معينة من خلال استعمالهم للغة، وفق قواعد معينة.

6-1- التقريريات Assertifs: هناك مقاصد يقصد إليها المتكلم في الأفعال اللغوية

باستعمال الأساليب الملائمة كأسلوب الاستفهام وذلك حين يريد أن يضمّن كلامه معنى آخر غير المعنى الظاهر كالإنكار أو التقرير وحين يكون المقام مقام تعليم وإرشاد، فإن الجمل التقريرية أكثر ملائمة لتحقيق هذا الغرض وهذا ما ترمي إليه التداولية وهو تحقيق الإفادة والتأثير والإنجاز مع توفر القصد ومن شواهد ذلك في الأحاديث النبوية الحديث الذي روته عائشة (رضي الله عنها) عن الرسول ﷺ حين قال للنفر الثلاثة الذين قدموا إلى بيته يسألون عن عبادته: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»².

الغرض من هذا الحديث تصحيح المفاهيم لدى هؤلاء النفر فاستفتح الرسول ﷺ حديثه بأسلوب الاستفهام الإنكاري إنكارا منه على ما ذهبوا إليه من مغالاة، ثم بين لهم بأسلوب خبري مؤكد بالقسم والأداة «إِنَّ» مع «لَامِ التوكيد»

¹ - عمر بلخير، "التداول التداولي للخطاب الأدبي"، مجلة القصة، 1999 م، ع2، ص70.

² - رياض الصالحين، ص55.

ولقد قسم البلاغيون العرب الخبر إلى ثلاثة أضرب:

– الأول: ضرب ابتدائي وهو ما لا يحتاج فيه إلى مؤكد.

– الثاني: ضرب طلبي وهو الذي يحتاج إلى مؤكد واحد.

– الثالث: ضرب إنكاري وهو ما يضم مؤكداً فأكثر وهذا الأخير، نجده مستعملاً في هذا الحديث وهذا من الأوجه البليغة في الاهتمام بالملتقي واستحضاره عند إنتاج الخطاب و«في هذه الإشارات المادية إلى حضوره قيمة تداولية كبيرة تتمثل في أنه لا يمكنه إنتاج الخطاب الذي يريد دون استحضار سامعه»¹.

والأسلوب الخبري نافع في تلقي المتعلم العلم إذا ما توفر البعد التداولي المتمثل في نية المرسل واستجابة المتلقي، والرسول ﷺ في هذا المقام يرشد هؤلاء الثلاثة إلى التوازن ويحذرهم من الانقطاع عن العبادة لأنّ النفس البشرية لها طاقة محدودة فإن تجاوزتها كلّت ومَلَّتْ كما أنّ للنفس عدة جوانب مطلوب من المرء أن يوازن بينهما فيعطي لكل جانب حقه.

إن كان الاستفهام من باب التذكير بحقيقة غير مختلف عليها، فذلك من باب التقرير وليس القصد منه حقيقة الاستفهام، وقد توخّى الرسول ﷺ هذه الدلالة في بعض استفهاماته كما في قوله: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله ما منّا أحدٌ إلاّ ماله أحبُّ إليه قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ»²، فالرسول ﷺ بدأ حديثه بهذا الاستفهام ليكون ذلك مدخلاً لافتاً، وليدمج المتلقين في الحوار فلا يسمح لهم بالحياد والتلقي فقط، بل يشركهم في تكوين المعنى.

ومن ذلك أيضاً نجد الحديث الذي رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال ﷺ: «هَلْ مِنْكَ وَالدِيكَ حِيٌّ؟» قال: نعم بل كلاهما، قال: «فَتَبْتَغِي الأجرَ مِنَ اللهِ تَعَالَى؟» قال: نَعَمْ قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى والدِيكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»³.

ويُعدّ الاستفهام من الأفعال الكلامية المتضمنة في القول وغرضه الاستعلام وطلب الفهم إلاّ أنّ الجمل الاستفهامية الصادرة هنا من الرسول ﷺ ليست كلها من باب الاستعلام ولكن

¹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 180.

² - رياض الصالحين، ص 195.

³ - المصدر نفسه، ص 104.

الغرض من ذلك التقرير فالرسول ﷺ وجه سؤالاً للصحابي يستعلمه فيه عن والديه إن كانا على قيد الحياة، فالاستفهام في هذا المقام هو ما عبر عنه السكاكي بقوله: « إن الاستفهام طلب وليس بخفي أن الطلب إنما يكون لما يهكم ويعنيك شأنه لا كما وجوده وعدمه عندك بمنزلة»¹ فبعد أن علم الرسول ﷺ بأن الوالدين على قيد الحياة كلاهما استفهم الصحابي استفهام تقرير قرر فيه عن رغبته في دخول الجنة، فأجاب الصحابي بـ « نعم » وهنا وجه الرسول ﷺ هذا الصحابي إلى الطريق المؤدي إلى مبتغاه وهو الفوز بالجنة.

كما نلاحظ في هذا الحديث استعمال النبي ﷺ لأسلوب الاستفهام لتفعيل الحوار والحوار أداة تعزز آليات التواصل بين الناس، ولذا فإنها تستغل للمساهمة في إفادة المتلقي لتقويم فعله من جهة، وجعله يشارك في بناء المجتمع الإنساني من جهة أخرى.

وهذا ما نجده في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أخبر النبي ﷺ أنني أقول: وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟» فقلت: له قد قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وتم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر» قلت: فإنني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يومين» قلت: فإنني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فصم يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داوود السليمان، وهو أعدل الصيام» فقلت: فإنني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك» ولأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي².

إن استفهام الرسول ﷺ كان بغرض التثبيت حول ما سمعه بشأن سلوك عبد الله ﷺ في العبادة، وفي ذلك قال ابن حجر: « لم يكن النبي ﷺ بما نقل له عن عبد الله حتى لقيه واستنثته فيه لاحتمال أن يكون ذلك بغير عزم وفيه أن الحكم لا ينبغي إلا بعد التثبيت»³.

فالنبي ﷺ استفهم عبد الله عن صحة ما تنهى إليه بشأن سلوكه في العبادة، قبل أن يوجهه إلى السلوك الصائب، إذ أنه كلما كان مطلعاً بشكل مباشر على المسألة كان أكثر إلماماً بالقضية فبعد تقرير الرسول ﷺ لعبد الله ﷺ قدم توجيهاته بشأن الاعتدال والموازنة بين حاجات

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص152.

² - رياض الصالحين، ص55.

³ - ابن حجر، فتح الباري، ج3، ص48.

الروح ومتطلبات الجسد والأهل، والزوج، والحياة العامة، مستعملا في ذلك أسلوب الحوار لما له من أهمية في عملية التبليغ والإرشاد، فالحوار محبب إلى النفس يضفي الحيوية على الموقف الكلامي ويبعد الملل والشروء عن المتلقي، فيشد انتباه السامع ويجعله أكثر إقبالا على المتابعة، كما يجعل ذهنه أكثر تفتحاً وتجاوبا مع المرسل فالحوار الجيد يجب أن يحتوي على صفتين أساسيتين: التركيز والإيجاز، إذ إنَّ الطول في العبارة الحوارية يميئ الحيوية أثناء العملية التواصلية.

وأسلوب الحوار من الأساليب التي شكلت ظاهرة لافتة في الحديث النبوي، وتتنوع أشكاله ومستوياته، وذلك لأهميته في نشر الدعوة، فالحوار أسلوب متقدم في الفكر البشري إذ يُقرّب المسافات بين النفوس، بعد عملية الكشف عما تخفيه، ومعرفة الحقائق والآراء المهمة التي كان من الممكن أن تذهب هباء لولا الكشف عنها، ولذلك وجه الله ﷻ نبيه إلى هذا الأسلوب في الدعوة كان الحوار هو الطابع العام في الأحاديث النبوية.

6-2- الوعديات Les promissifs: تتضمن الأفعال الكلامية المندرجة ضمن هذا

الصنف معنى الوعد والغرض منها التزام المتكلم بالقيام بعمل ما في الزمن المستقبل، ومن الأحاديث التي تدرج ضمن هذا النوع الحديث الذي رواه حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّضِعٍّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَثَلٍ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ»¹.

ألزم الرسول ﷺ في هذا الحديث نفسه بتعليم الصحابة أمرا دينيا موظفا بذلك أسلوب الاستفهام «ألا أخبركم؟» فالنبي ﷺ لا ينتظر الإجابة من الصحابة رضي الله عنهم إنما غرضه التنبيه حتى يستعد المتلقون لتلقي الرسالة، والتي تتمثل في إخبارهم عن صفات أهل النار بغرض تحذيرهم من الاتصاف بها، وحثهم على الاتصاف بصفات أهل الجنة.

وتكرار أسلوب الاستفهام في هذا الحديث دليل على قصدية المرسل في إثارة انتباه المتلقي لتبليغه رسالة تحمل إفادة ومبدأ الإفادة هو الفائدة التي يجنيها المتلقي من الخطاب وهي فائدة تواصلية، ذات أبعاد تداولية تربط بين المتكلم والمستمع، ففي هذا الحديث تحقق الغرض من فعل الكلام والمتمثل في وعد النبي ﷺ بالإخبار فكان قصده تعليم الناس ما ينفعهم والمقصد من

¹ - رياض الصالحين، ص 87.

رفع الرأس أثناء الصلاة، وفعل الأمر كما يقول (ديكرو O.Ducro) يتطلب نوعاً من العلاقة الترتيبية بين الذي يأمر والذي يؤمر¹.

كما نلاحظ هنا مبدأ التأدب الذي انتهجه الرسول ﷺ في قوله: «ما بال أقوام» وهو موافق للمعروف من خطبه ﷺ في مثل هذا أنه إذا كره شيئاً فخطب في الناس وذكر كراهيته لذلك دون تعيين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ، فهو يقصد من تلك الخطبة الشخص الذي قام بالفعل وجميع الحاضرين وغيرهم ممن يبلغه ذلك، دون أن يوبخ الصحابي في الملام².

يتجلى لنا في هذا الحديث أنّ الرسول ﷺ كان يتوخى تحقيق مبدأ الإفادة فقوله (ما بال أقوام) كان لغرضين كما يرى ابن حجر فالأول: الستر على الفاعل طالما أن الفائدة تتحقق دون الحاجة إلى الكشف عن شخصيته والثاني: أن في أسلوبه ﷺ الذي يجمع الرفق واللفظ إلى جانب الحزم والشدّة، فأما رفقّه فيتجلى في عدم كشفه عن الشخص المقصود بالتوبيخ وما يحمله ذلك من دلالات الرحمة وحفظ كرامة الشخص وأما الشدّة والحزم فتجلى في زجره وتوبيخه لمن يفعل هذا الأمر سواء كان الشخص الفاعل آنفاً أو غيره كما يفيد ذلك التحذير من الفعل والحث على الاحتراز من الوقوع فيه³.

كما نجد خروج الاستفهام إلى غرض الأمر في الحديث الذي رواه أبو بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الوَالِدِينَ» وكان مُتَكِنًا فَجَلَسَ فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ⁴.

وقد اتفق النحاة على أن فعل الأمر في اللغة العربية يفيد المستقبل أبداً،⁵ فإن كان الأمر في الأحاديث العادية يدل على مستقبل محدود ينتهي بانتهاء الأمر والطلب فإننا نلاحظ أن أفعال الأمر الواردة في الأحاديث النبوية خالدة مستمرة ما دامت الحياة، وفي هذا الحديث سبق أسلوب الاستفهام بأداة العرض «ألا» لتنبية السامعين وإثارة رغبتهم في معرفة أمر جديد

¹ - O. Ducrot, Dire et ne pas dire, Principe sémantique- linguistique, Collection savoir- sciences. 3^{ème} Édition, Hermann Editeur de science des arts, Paris : 1991, p 9.

² - النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج9، ص 176.

³ - ابن حجر، فتح الباري، ج10، ص ص 229 - 630.

⁴ - رياض الصالحين، 108.

⁵ - فتحي عبد الفتاح الدجني، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم مكتبة الفلاح، الكويت: 1984م، ص 130.

يجنبهم الوقوع في أمور عظيمة يصفها النبي ﷺ بأنها أكبر الكبائر، وتأكيداً لأهمية الأمر وخطورته شوق النبي ﷺ الصحابة باستعمال أسلوب الاستفهام.

انتقل الرسول ﷺ إلى العبارة القصيرة التي دعته إلى تغيير جلسته فجأة مع ظهور انفعال على وجهه الكريم ليكون هذا التغيير الجسماني دليلاً على خطورة ما سيقول ثم قام بتكرار العبارة « ألا وقول الزور » ليأخذ هذا التكرار بقلوب الصحابة حتى تمنوا لو أنه سكت رحمة له والتكرار أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة ولذا قيل: « الكلام إذا تكرر تقرر »¹.

يأمر الرسول ﷺ في هذا الحديث الصحابة بترك الأمور التي تعد من الكبائر وهي الشرك بالله وعقوق الوالدين وقول الزور وفعل الأمر ليكون ناجحاً « يجب أن يفهم المرسل إليه أنه وجه إليه أمراً مستعينا في ذلك بالتنغيم Intonation أو السياق »².

وانطلاقاً من مبدأ التعاون المشترك الذي تفرضه طبيعة استمرارية الخطاب بين الطرفين يقتضي الأمر وجود تفاهم بين المرسل والمرسل إليه حول قدر معين من المعلومات والمعطيات والمفاهيم ولكي تحصل الفائدة وهي الإبلاغ والإفهام يجب تضافر عدة مستويات لغوية إذ « تحيل فكرة الفائدة على طريقة في التعالق بين الإبلاغ والإفهام من ناحية والوظيفة اللغوية من ناحية أخرى »³.

6-4- الإيقاعيات Les déclaratifs: الغرض منها إحداث تغيير في الكون بشرط توفر

كل من الإرادة والقصد والاعتقاد وهي تسجل نسبة حضور مكثفة في رياض الصالحين فالإيقاعيات من الأساليب الإنشائية التي تفيد الطلب وهي تساعد على التبليغ نظراً لما تتمتع به من تأثير على المتلقي وقدرة على الإقناع والإثارة ولعل وجود الإيقاعيات بكثرة في رياض الصالحين يترجم لنا نية الرسول ﷺ وقصده الساعي إلى الإبلاغ والتأثير وإفهام المتلقي.

¹ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 86.

² - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلطف وتداولية الخطاب، ط1. منشورات مخبر تحليل الخطاب، تيزي وزو: 2005م دار الأمل للنشر، ص127.

³ - بوجمعة شتون، بلاغة النقد وعلم الشعر في التراث النقدي، ط1. منشورات مخبر تحليل الخطاب، تيزي وزو: 2007م، دار الأمل للنشر والتوزيع، ص306.

ومن الأحاديث التي تدرج ضمن هذا الصنف من الأفعال الكلامية الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».¹

أسلوب الاستفهام الوارد هنا في هذا الحديث مجازي لأن الرسول ﷺ هنا لا يستفهم لطلب الفهم وإنما باستعماله لهذا الأسلوب يسعى إلى إفهام المتلقين مقصوده نظرا لما لهذا الأسلوب من قوة الإيحاء والإبلاغ، والرسول ﷺ لم يفرض نفسه على المتلقين بل استعمل معهم الاستراتيجية التضامنية إلى جانب الاستراتيجية التوجيهية، والأولى «تعنى بالتعامل الأخلاقي أولا، ولكن دون إغفال الاهتمام بتبليغ القصد والتعبير عنه»،² والثانية «تعد ضغطا وتدخلوا ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه وتوجيهه لفعل مستقبلي معين»،³ وهذا مؤداه نجاح العملية التواصلية والتي كان الغرض منها إيلاخ الرسالة، ومن ثم فإن أسلوب الاستفهام «جاء ليؤدي وظيفة تداولية تتمثل في إقناع المتلقي من خلال خروجه إلى الأغراض المذكورة، كما أنه من جهة أخرى وباعتباره فعلا كلاميا مكررا في ذاته يؤدي هذه الوظيفة الإقناعية».⁴

وقد ركز العلماء العرب في دراستهم للجملة على مبدأ «الإفادة» لذا بين السكاكي أن موضوع علم المعاني هو «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره»⁵، كما نلاحظ ورود الجملة الفعلية بعد الأداة الاستفهامية وهذا دلالة على الحركية والتغيير لأن الفعل يدل على التجدد والحدوث بينما الاسم يدل على الاستقرار والثبوت.

وهذا الحديث يتساق مع الحديث الذي رواه معاذ رضي الله عنه قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةُ الصَّدَقَةِ تَطْفِيءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

¹ - رياض الصالحين، ص 119.

² - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 261.

³ - المرجع نفسه، ص 323.

⁴ - أمانة بلعلی، «الإقناع: المنهج الأمثل للتواصل والحوار، نماذج من القرآن والحديث»، مجلة التراث العربي دمشق:

مارس: 2003م، ع 89، ص 216.

⁵ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 77.

المُضَاجِعِ ﴿ حَتَّى بَلَغَ ﴾ يَعْمَلُونَ ﴿ [السجدة الآية: 16]. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بلى يا رسول الله، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ. وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلاكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بلى يا رسول الله. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أُمَّكَ وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»¹.

ومعاذ ﷺ من أحرص الصحابة على العلم والتعلم، وكان أعرفهم بالحلال والحرام ولذا كان النبي ﷺ يخصه ببعض العلم دون غيره².

إن من وسائل إيضاحه ﷺ أسئلته التي كان يلقيها على أصحابه ليوقظ بها انتباههم ويرهف بها شعورهم، فيستقبلوا هديه بنفوس متلهفة للمعرفة، فيستقر في أذهانهم، ويعلق بقلوبهم.

استعمل الرسول ﷺ أسلوب الاستفهام في هذا الحديث لتنشيط حركة الحديث وإقامة الحوار بينه وبين معاذ رضي عنه فما إن قال ﷺ «ألا أدلك؟» حتى قال له معاذ: «بلى يا رسول الله» والحوار سمة شائعة في الأحاديث النبوية الغرض منه الإرشاد والتوجيه، ووسيلة للإقناع، فالرسول ﷺ يمتلك من السلطة ما يخول له أن يوجه الصحابة بطريقة مباشرة فيملي عليهم توجيهاته، ولكنه ﷺ لا يخاطب العقول فقط بل ينفذ إلى القلوب أيضا حتى يشدذ الهمم ويقوي العزائم على تقبل ما يقول والعمل به، فيجعل بذلك المتلقين يستجيبون ويعملون بما يقول.

ونرى في هذا الحديث تدرج الرسول ﷺ في عرضه للمعلومات وهذا «لأن التدرج في الأغراض يوحى بالمنطقية في التعامل مع النفس البشرية من أجل إقناعها، حيث إنه لا يجب إعطاء معلومات دفعة واحدة إذا كان المخاطب خالي الذهن، فما بالنا إن كان الأمر مرتبط بهدف تغيير اعتقاد»³.

كما نلاحظ تكرار أسلوب الاستفهام في هذا الحديث والتكرار هو تأكيد على أهمية الرسالة وهذا ما يخدم الغرض التداولي لأننا باستعمالنا لأسلوب التكرار نقرر المؤكد في نفس السامع وتمكنه في قلبه، ففائدة التأكيد تمكين المعنى في نفس المخاطب، وقد ورد هذا الأسلوب كثيرا في القرآن الكريم فأشار إليه علماء اللغة ومن ذلك التكرار الذي ورد في (سورة الكافرون) وفي

¹ - رياض الصالحين، ص 367.

² - ينظر: ابن حجر، فتح الباري، ج 1، ص 227.

³ - أمانة بلعلی، «الإقناع: المنهج الأمثل للتواصل والحوار»، ص 214.

(سورة الرحمن) وفي ذلك يقول ابن قتيبة: «فإنما أعلمتكم أن القرآن نزل بلغة القوم وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة الإفهام والتوكيد، كما أن من مذاهبهم الاختصار وإرادة التخفيف والإيجاز»¹، ومن هنا يتحقق مبدأ الإفادة، فالرسول ﷺ أراد تعليم المسلمين عامة من خلال معاذ ﷺ أسس الإسلام وأركانه، وتبقى الإفادة متعلقة بالمخاطب وما يجنيه من منفعة تقربه من الله ﷻ والرسالة التي بلغها الرسول ﷺ ليست ذات منفعة آنية بل هي رسالة باقية ما بقيت البشرية.

6-5- البوحيات Expressifs : وهي بمعيار سيرل الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية

المتكلم فهي التعبير عن المشاعر إزاء الواقع بتقديم الشكر أو الاعتذار، أو الترحيب، أو التهنية. ومن الأحاديث التي أراها تتدرج ضمن هذا الصنف من الأفعال الكلامية الحديث الذي روته عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان النبي ﷺ يَوْمُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَنْتَطِرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»². من الشروط التي يجب توفرها في البوحيات شرط الإخلاص وهذا الأخير يتحقق بإخلاص المتكلم أثناء أداءه للفعل اللغوي فلا يقول غير ما يعتقد ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع وهذا الشرط متوفر في أقوال الرسول ﷺ بصفة مطلقة، وفي هذا الحديث نجده في الجملة الاستفهامية: «أفلا أكون عبدا شكورا؟».

فالغرض من أسلوب الاستفهام هنا هو التعبير عن حالة نفسية وهي الرغبة في شكر الله ﷻ بفعل العبادة، والحديث هنا رسالة موجهة إلى المسلمين كافة يدعوهم من خلالها الرسول ﷺ إلى التقرب من الله عز وجل بالطاعة والعبادة والشكر على النعم.

وأیضا یندرج ضمن البوحيات حديث أبي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟»، قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران الآية: 2] فَضْرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «ليهنك العلم أبا المنذر»³.

¹ - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 240.

² - رياض الصالحين، ص 295.

³ - المرجع نفسه، ص 270.

تصدر هذا الحديث أسلوب نداء وهذا الأسلوب يعتبر توجيهها لأنه يحفز المرسل إليه لردة فعل تجاه المرسل¹، وهو من المنظور البلاغي من الإنشاء الطلبي، ويعد في اللسانيات التداولية من الأفعال الكلامية شأنه شأن الأفعال اللغوية الأخرى فهو يشكل القوة الانجازية للجملة² والجملة التي هنا فيها النبي ﷺ الصحابي الجليل بما أودعه الله من علم جعلتني أصنف هذا الحديث ضمن البوحيات، كما يُعد الاستفهام الوارد في الحديث المذكور أنفا سؤالا بغرض التوجيه «فالأسئلة الاستفهامية من الآليات التوجيهية بوصفها توجه المرسل إليه إلى خيار واحد وهو ضرورة الإجابة عليها»³.

إن إنجاز المتكلم لفعل خطابي كالاستفهام يقتضي أن يسند إلى نفسه الدور، وفي الآن ذاته يسند إلى المستمع دورا آخر فالمرسل حين يستفهم ينتظر مشاركة المرسل إليه ولكي يتم الإنجاز ويتحقق الفعل الكلامي يشترط فهم المستمع لقوة الفعل الكلامي التي ضمّتها المرسل لاستفهامه ففوة الفعل الكلامي هي كل ما يتعلق بالإنجاز كالأمر والاستفهام إلخ.

نلاحظ مما سبق أن أفعال الكلام الواردة في الأحاديث النبوية مؤسسة على منطق التأدب و«الذي من آلياته ألا يفرض المتكلم نفسه على المخاطب، وأن يجعله يختار، ويتجلى هذا المبدأ خاصة في استعمال الاستفهام أو التمثيل لجعل المخاطب يبادر إلى الاقتناع»⁴، فالرسول ﷺ لم يكن يستغل سلطته حين فرض الأوامر عليهم أوحين نهيمهم.

أراد الرسول ﷺ أن يبلغ الصحابة ﷺ حقيقة الإيمان لتكون لهم القدرة على حمل الأمانة والقيام بالتكاليف، والثبات عند الفتن ولذلك استعمل معهم كل الطرق المؤدية إلى تحقيق هذه المنفعة والغاية المرجوة.

7-تأثيرية الفعل الانجازي:

إن اعتماد الأساليب الإنشائية من أهم الخصائص التداولية البارزة في الحديث الشريف لأنها تمنح حرية ومجالا واسعا للتعبير والإقناع والتأثير، وأيضا لأنها تشغل حيزا كبيرا في نظرية الأفعال الكلامية التي تمثل الجانب المادي في النظرية التداولية.

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 360.

² - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط1. المغرب: 1985 م، دار الثقافة، الدار البيضاء ص 161.

³ - ظافر الشهري، المرجع السابق، ص 352.

⁴ - آمنة بلعلی، "الإقناع: المنهج الأمثل للتواصل والحوار"، ص 233.

إنّ ما يؤطر العملية التواصلية هو إنجاز فعل ما، فالمتكلم إذ يتفوه بمثل هذا الملفوظ (الجو جميل) ينجز فعلاً تتحدد طبيعته من خلال السياق الذي ورد فيه، كما يرتبط الفعل الإنجازي بمقاصد المتكلم، وهذه المقاصد لها دور مركزي في نظرية الفعل الكلامي لأنّه لا يكفي الفعل الكلامي لوحده، بل لا بد من توفر العرف اللغوي أيضاً¹، ولذا يرى فان دايك بأن أفعال الكلام غرض رئيسي للتداولية، وفي حال تكلمنا فإننا ننجز شيئاً ما، كما يرى بأن الأمر أكبر من مجرد التكلم، إذ أنّ استعمال اللغة ليس إنجاز فعل مخصص فقط، إنما هو جزء كامل من التفاعل الاجتماعي²، ولذا ارتأيت أن أقف على الفعل الإنجازي في هذه الأحاديث النبوية بدءاً بالحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ فَقَالَ: «أَتَرْضُونَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: «قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضُونَ أَنْ تَكُونُوا ثُلثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَذَلِكَ أَنْ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسَلِّمَةٌ وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرِكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»³.

الفعل الإنجازي في هذا الحديث ما تضمنه أسلوب الاستفهام "أترضون" وغرضه الإنجازي التقرير، ولقد بين الزركشي أنّ الاستفهام يأتي بمعنى الخبر وبمعنى الإنشاء فالخبر أحدهما نفي ويسمى استفهام إنكار، والثاني للإثبات ويسمى استفهام تقرير، والتقرير حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده⁴.

وقوة الفعل الإنجازي تكمن هنا في تكرار الاستفهام وأيضاً في التأكيد بالقسم و"إن"، و"لام التوكيد" ويمكن أن نفهم أنّ التوكيد في هذا الحديث ليس لأنّ المرسل إليه - وهم الصحابة رضي الله عنهم - في شك من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما جيء به في الخطاب لتأكيد وتعظيم محتوى الرسالة عنده صلى الله عليه وسلم ويقول في هذا شفيع السيد: «إن» لازمة يستخدمها المتكلم في بداية الكلام، أو في مطالع الفقرات عفواً ودون أن يكون هناك تردد في الحكم من جانب المخاطب»⁵.

¹ - محمود أحمد نحلة، آفاق البحث اللغوي المعاصر، ص 54.

² - فان دايك، النص والسياق، ص 277.

³ - رياض الصالحين، ص 134.

⁴ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 328.

⁵ - شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، تأصيل وتقييم، ط 1. مصر: د ت، دار الفكر العربي القاهرة، ص 185

كما نلاحظ أنّ الحديث جاء بأسلوب حوارى وهذا بغرض تحقيق التفاعل بين أطراف الخطاب « لتصبح أفعال الآخرين اللغوية التي يشاركون بها في السياق التواصلي، هي السياق الدافع لإنتاج الخطاب اللاحق.... إذ لا يحصل التواصل أو إدراك القصد دون تفاعل تعاوني منسق»¹.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»².

جاء بأسلوب الاستفهام في هذا الحديث بغرض لفت الانتباه، لأنّ الإخبار المباشر والتبليغ لا يحققان الغرض من الخطاب، والمتمثل هنا في إرشاد الناس إلى منفعة عملية تكسبهم نشاطا وقوة ورضا الله جلّ جلاله، فالقيام ليلا للوضوء والصلاة هي أعمال فيها حركة واجتهاد لمقاومة خمول النفس، فهي تبعث النفس على تجديد طاقتها، وكذا القرب من الله وعزّ وجلّ، ولذلك فإنّ تلفظ المرسل بخطاب ينطوي على أسلوب الاستفهام يتجاوز الفعل اللغوي الإنجازي إلى الفعل التأثيري، وهو العمل بهذه الأعمال التي ذكرها صلى الله عليه وسلم.

والحديث السابق يتساق مع الحديث الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربّها؟» فقالوا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربّها؟ قال: «يتمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف»³.

استفتح الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث بأحد حروف المعاني وهي "ألا" الاستفتاحية التي تفيد التنبيه ومن منظور اللسانيات التداولية "ألا" تكون مع فعلها فعلا كلاميا يفيد معنى العرض والغرض من ذلك التأثير في المخاطب فيعمل على إنجاز الفعل أو تركه، فهي تحمل قوة إنجازية حسب المقام والسياق الذي ترد فيه، فالعرض هو «الطلب برفق ولين، ويظهران غالبا في صوت المتكلم وفي اختيار كلماته رقيقة دالة على الرفق، ومن أدواته "ألا"، "لو"⁴، والغرض المتضمن

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ص 43- 44.

² - رياض الصالحين، ص 273.

³ - المصدر نفسه، ص 270.

⁴ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 360.

هنا هو حث الصحابة رضي الله عنهم على إتمام الصفوف، كما استعمل لذلك التمثيل، حين ذكر لهم أن إتمام الصفوف من صفات الملائكة، فالتمثيل يجعل المخاطب يبادر إلى الاقتناع.

أما الاستفهام في هذا المقام فالقصد منه التوجيه لعمل في المستقبل فهو التمنى المتولد منه معنى السؤال، ولذلك جيء بصيغة المضارع (ألا تصفون)، ويكون الدافع في هذا التوجيه فعل سبق وأن قام به المرسل إليه فيما سبق، ولكنه فعل شابه نقص من وجهة نظر المرسل.¹

ومنه فأسلوب الاستفهام يدمج المتلقي في النص، ولا يسمح له بالحياد، أو المراقبة فقط بل إنه يشركه في تكوين المعنى.

وقد يراد بالاستفهام الاختبار و«هذا غرض بلاغي القصد منه أن يختبر السائل المسؤول وهو يقتضي أن يكون السائل عارفاً بجواب ما يسأل عنه»²، ووظيفة الاستفهام في هذه الحال تعليمية لأن المرسل باستفهامه يضع المقرر وكأنه أمام أمر لا بد فيه من الإجابة، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»³.

استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب الاستفهام موظفا الاستراتيجية التضامنية، محققا بذلك التفاعل بينه وبين الصحابة رضي الله عنهم بدل أسلوب التوجيه المباشر، رغم يقينه بأن سلطته تخول له استخدام هذا الأسلوب المباشر في التوجيه والإرشاد، هذا التوجيه الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يمتثلون له لأن سلطته صلى الله عليه وسلم دينية والدين مقدس عند المسلمين «والقداسة أقوى وأعلى من المؤسسة التي تواضع عليها البشر»⁴.

كما نلاحظ أيضا استعمال النمط الحجاجي، وذلك باستعمال الاستفهام التقريري، ويعد أسلوب الاستفهام أشد إقناعا للمرسل إليه وأقوى حجة عليه، فالاستفهام هنا فعل حجاجي بالقصد المضمرة فيه، وفق ما يقتضيه السياق، فالمرسل إليه يدرك أن هذه الأسئلة ليست استفهاما عن

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 358.

² - قطبي الطاهر، بحوث في اللغة، الاستفهام البلاغي، ص 42.

³ - رياض الصالحين، ص 275.

⁴ - عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، ص 181.

مجهول، وأن المرسل لا يجهل شيئاً من هذه المعارف¹، ولهذا « فهي حجج باعتبار قصد المرسل لا باعتبار الصياغة والمعنى الحرفي فقط»².

وعن عائشة (رضي الله عنها) أَنَّ قَرِيشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يَكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى؟ » ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: « إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»³.

الفعل الإنجازي متضمن في استفهامه ﷺ «أتشفع في حد من حدود الله» وهو استفهام إنكاري فقد أنكر الرسول ﷺ على أسامة ﷺ سلوكه، بأسلوب الاستفهام وهو بهذا يثير في نفس أسامة التفكير ويدفعه إلى تدبر العواقب، حتى يقتنع بتفكيره الخاص بأنه ما كان ينبغي أن يقع ما وقع.

أما في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهَرًا أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةَ أَدْهَى وَأَمْرٌ؟ »⁴، فنجد أن الرسول ﷺ استعمل أسلوب الاستفهام في قوله "هل تنتظرون" ثم أجاب مباشرة دون انتظار أن يجيبه الصحابة ﷺ بنعم أولاً، وذلك لأن قصده من الاستفهام ليس تلقي الإجابة بل أن تأتي الإجابة باستجابة فعلية فالاستفهام هنا ليس استفهاماً حقيقياً بل هو توجيهي، وقد صنّف (باخ) (Bakhe) الأسئلة ضمن أصناف الأفعال التوجيهية، وهذه الأخيرة «تعبّر عن توجه المرسل إلى أن يُنفذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل»⁵.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: « مَا أَجَلَسُكُمْ؟ » قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: « أَلَلَّهِ مَا

¹ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 485.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - رياض الصالحين، ص 188.

⁴ - المصدر نفسه، ص 183.

⁵ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 338.

أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: واللَّهِ ما أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قال: «أما إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلِكِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»¹.

استعمل الرسول ﷺ في هذا الحديث أساليب متنوعة من استفهام "ما أجلسكم؟" واستفهام مع نفي "الله ما أجلسكم إلا ذاك؟" وجملة مؤكدة بنفي "أما إنني لم استحلفكم تهمة لكم"، وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه من الاستفهام مقاصد أخرى كأن يُري المسئول أنه خفي عليه أمر ليسمعه الجواب، أو لاستدراج المرسل إليه إلى الحوار والذي هو «بنية تداولية يقترن فيها قصد التوجيه بقصد التأثير والتقويم الأخلاقي المقترن بالعمل»².

فمعيار نجاح فعل التكلم هو الأثر الذي سيظهر على السامع، والملاحظ أن سؤال الرسول ﷺ للصحابة جعلهم يتفاعلون معه، إذ إن الأفعال اللغوية التي يشارك بها المتلقي في الحوار، تعتبر السياق الدافع لإنتاج الخطاب اللاحق وهو الوصول إلى الخبر الذي أراد ﷺ أن يوصله للصحابة ﷺ وهو أن الله ﷻ يباهي بهم الملائكة لجلوسهم بغرض حمده وشكره على نعمه، كما نلاحظ تكرار استعمال أسلوب الاستفهام في هذا الحديث وذلك لأن المقام يستلزم ذلك، وهذا ما ذهب إليه عباس حسن بقوله: «واعلم أن التكرار أسلوب من أساليب العربية يؤتى به لتأكيد القول وتثبيتته حينما يستلزم المقام ذلك»³، والتأثير على المتلقي هو ما يعمد إليه المرسل إليه، فالرسول ﷺ في هذا المقام بصدد تربية الصحابة ﷺ التربية الدينية التي توصلهم إلى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث الذي روته عائشة (رضي الله عنها) قالت: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ⁴ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فقال: أَنَا

¹ - رياض الصالحين، ص 349.

² - أمانة بلعلی، "الإقناع: المنهج الأمثل للتواصل والحوار"، ص 20.

³ - عباس فضل حسن، البلاغة العربية فنونها وأفنانها، ج 1، ص 487.

⁴ - قوله يستتضع الآخر ويسترفقه: أي يطلب منه أن يضع عنه بعض الدين، ويرفق به في الاستيفاء والمطالبة، وأين المتألي: أي الحالف المبالغ في اليمين، والإلية: اليمين، ينظر: ابن حجر، فتح الباري، ج 5، ص 387.

يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ*¹، نلاحظ في هذا الحديث أَنَّ الفعل الإنجازي متضمّن في الاستفهام الوارد من الرسول ﷺ في هذا الحديث وهو استفهام إنكاري حيث أنكر الرسول ﷺ على هذا الصحابي سلوكه المتمثل في رفضه عمل المعروف أما الغرض من أسلوب الاستفهام في هذا الحديث فهو حتّ الصحابي على الرفق بغريمه، وحثّه على الإحسان إليه بالوضع، وزجره عن الحلف على ترك فعل الخير والقرينة على ذلك سرعة استجابة الصحابي وقوله: «أنا وله أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ»، فنلاحظ سرعة فهم الصحابة ﺭﺯﻯ ﺍﻟﻠﻪ ﺍﻋﻨﻬﻢ وﺑﺮﺍﺩ ﺍﻟﺮﺳﻮﻝ ﺳﻠﻢ وطواعيتهم بما يشير به ﺭﺯﻯ ﺍﻟﻠﻪ ﺍﻋﻨﻬﻢ، وحرصهم على فعل الخير².

حقق الفعل الإنجازي (أين المتألي؟) في هذا الحديث الفعل التأثيري وهذا الأخير له قيمة كبيرة في تداولية الحديث فالدرس اللغوي التداولي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنه «لأن اللغة لا تؤدّي وظائفها إلا فيه»³، ولذا علينا معرفة الظروف التي أنجز فيها الخطاب لمعرفة تأثير هذه الظروف على نظام الخطاب المنجز.

كما نلاحظ سمة الإيجاز التي غلبت على الفعل الإنجازي في هذا الحديث وهذا راجع لإدراكه ﺭﺯﻯ ﺍﻟﻠﻪ ﺍﻋﻨﻬﻢ بأن الكلام المختصر يستهوي القلوب، ويرسخ في الذهن أكثر من الكلام الطويل والإسهاب في ذكر التفاصيل.

وعن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي ﺭﺯﻯ ﺍﻟﻠﻪ ﺍﻋﻨﻬﻢ قال: كنا عند رسول الله ﺭﺯﻯ ﺍﻟﻠﻪ ﺍﻋﻨﻬﻢ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» وكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَّامَ نَبَايَعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَتَطِيعُوا اللَّهَ وَأَسْرًا كَلِمَةً خَفِيَةً «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيَاءِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يَنْوِلُهُ إِيَّاهُ.»⁴

* - وقوله: أنا وله أَيُّ ذَلِكَ أَحَبُّ: أي من الوضع والرفق.

¹ - رياض الصالحين، ص 86.

² - عباس فضل حسن، البلاغة العربية فنونها وأفنانها، ص 687.

³ - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 22.

⁴ - رياض الصالحين، ص 162.

الفعل الإنجازي في الاستفهام (ألا تبايعون) والغرض المتضمن فيه هو الأمر أي (بايعوا رسول الله) وبمنظور تداولي علينا أن نحدّد منزلة كل من المتكلم والمتلقي لمعرفة غرض الفعل الطلبي إن كان أمراً أو التماساً، وبما أنّ الفعل صادر من الرسول ﷺ - وهو يمتلك من السلطة الدينية والمعنوية ما ليس بخاف-، فإن الفعل الطلبي في هذا السياق هنا يمكن أن يكون أمراً وتكمن قوّة الفعل الإنجازي هنا في تكرار الاستفهام الطلبي، والتكرار يدل على أهمية الأمر الذي كان الرسول ﷺ بصدد تبليغه للصحابة رضي الله عنهم.

وبما أنّ الفعل الكلامي، ينتج عنه حتماً فعل تأثيري فإن هذا التأثير قد حصل بقريظة قول راوي الحديث: « فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحد يناوله إيّاه». ومن هنا نستنتج أن الاستفهام في هذا الحديث جاء بغرض الطلب كما أنه وباعتباره فعلاً كلامياً مكرراً في ذاته فقد أدى إلى تحقق الوظيفة الإقناعية¹.

وقد يراد بالاستفهام الاعتراف بحقيقة ثابتة وهذا ما نلمحه من خلال الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟ » قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قال: « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ »².

غرض الاستفهام هنا هو التقرير، والتقرير يكون على ضربين الأول: تقرير المخاطب على فعل مضى ووقع، والثاني: تقرير المخاطب على فعل هو في الحال ليواجه المقرّر بذلك وهناك استفهام يراد به التثبيت، أي الاعتراف بحقيقة ثابتة، وهذا هو غرض الاستفهام الموجّه هنا إلى الصحابة فوضع الكلام في صورة الاستفهام يضع المقرّر وكأنه أمام أمر لا بد فيه من الإجابة، والقريظة على ذلك إجابة الصحابة: (يا رسول الله ما منّا أحد إلا ماله أحب إليه).

والمرسل هنا وهو الرسول ﷺ يدرك الإجابة يقيناً لكنه استعمل الاستفهام بهدف إثباتها وتقريرها، كحقيقة أكيدة قصد التأثير في المتلقين، ليجيبهم بعدما قرّروهم بقوله: « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » وهذا لأن أفعال التوجيه غايتها حمل الشخص على القيام بأمر معين، أو نصحه، أو نهيّه عن أمر أتى به، والرسول ﷺ لم يعمد إلى استعمال أسلوب الإخبار وإن حمل المعنى نفسه ولكنه عمد إلى أسلوب إنشائي يتمثل في أسلوب الاستفهام وذلك لأن هذا الأسلوب يدمج المتلقي في النص ولا يسمح له بالحياد أو المراقبة فقط بل يشركه في تكوين المعنى.

¹ - أمانة بلعلی، "الإقناع: المنهج الأمثل للتواصل والحوار"، ص216.

² - رياض الصالحين، ص165.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرْقَةَ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحَقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةَ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ¹.

طرح الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث استفهاما إنكاريا، إنكارا منه لفعل أسامة والاستفهام الإنكاري معناه إنكار وقوع الشيء ماضيا أو مستقبلا على سبيل التوبيخ، فلا يتم تقرير المخاطب في شيء، وإنما ينكر عليه ويستهن منه ما حدث، سواء كان قولا قاله أو فعلا فعله ولم يكن ينبغي له ذلك، فيوبخ على ما صدر منه، وحينما يلقى الكلام بصيغة الاستفهام الإنكاري فكأن السائل ينتظر من المسؤول جوابا، فهذا الأخير سيفكر ويراجع أفعاله أو أقواله وسيجد نفسه بعد هذه المراجعة في ضيق وحرَج،² وهذا ما شعر به أسامة رضي الله عنه حين قال: (تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) وعن هذا عبّر النووي (رحمه الله) فقال: «قاله من عظم ما وقع فيه»³. فالاستفهام الإنكاري من الأساليب البلاغية المهمة في البلاغة العربية لما له من وقع في النفس أبلغ وأشد في إبراز الأمر المستفهم عنه، والذي لا ينتظر جوابا عليه، إذ يكون بذلك أكثر تأثيرا في المرسل إليه وردعا له، ومنه فإنّ الفعل التأثيري يكون ناجحا اعتمادا على سلطة المرسل، ونحن هنا بصدد دراسة لغة الحديث النبوي، المرسل فيه هو الرسول صلى الله عليه وسلم وله من السلطة الدينية والمعنوية ما يخول له إصدار الأوامر والنواهي، وتوبيخ المخطئ وزجره.

وينبثق من الفعل التأثيري قوتان: قوة إيلاعية هي الوظيفة الكامنة في الفعل الكلامي وقوة تأثيرية تتمثل في آثار الفعل الكلامي ونتائجه⁴، إذ إنّ للفعل الكلامي قدرة على إنتاج آثار ثانوية قد تكون آنية، وقد تتجاوز اللحظة التي قيل فيها الفعل الكلامي، والفعل التأثيري الناتج عن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم باق خالد إلى غاية فناء البشرية.

كما نلاحظ استعماله صلى الله عليه وسلم لأسلوب النداء في مخاطبته لأسامة وقد تكرر ورود هذا الأسلوب كثيرا في بداية الحديث النبوي مستهلا به الرسول صلى الله عليه وسلم خطابه، فنستنتج من ذلك أن أسلوب

¹ - رياض الصالحين، ص123.

² - عباس فضل حسن، البلاغة العربية فنونها وأفنانها، علم المعاني، ط4. الأردن: دت، دار الفرقان، ص194.

³ - النووي، المنهاج شرح مسلم ابن الحجاج، ص195.

⁴ - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص126.

النداء في الأحاديث النبوية يعتبر مدخلا للأفعال الكلامية الأخرى التي يأتي بعدها الهدف من خطابه ﷺ مباشرة سواء كان ذلك توجيهاً أو إخباراً أو إنكاراً وغيرها من المقاصد.

وعن أبي بكر بن الحارث بن العاص قال: قال الرسول ﷺ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قلنا بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان مُتَكِنًا فَجَلَسَ فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليتها سكت¹.

إن الميل إلى اعتماد الأسلوب الإنشائي المتمثل في أسلوب الاستفهام يثمر عنه تفاعل بين طرفي الخطاب، يتجسد في سرعة استجابة المتلقين، فالمتكلم يلجأ إلى توظيف هذا الأسلوب ليعتد في النص «حياة وحركة، ويمنحه أسباب القدرة على الإقناع، والإمتاع، فيستهوي المستمعين ويجعلهم أكثر تفاعلاً مع الهدف المنشود»².

فالمرسل هنا وهو الرسول ﷺ وظف أسلوب الاستفهام ليخرج الحديث من سياق الإخبار إلى سياق التوجيه (ألا أدلكم) ليصرف عنه البعد الإكراهي، ومن هنا «يتبين لنا مدى تعقيد مهمة الرسول ﷺ في إحداث الإقناع واستحضار الإرادة التي تخدم هدف الحديث الذي هو إصلاحي في كل الأحوال»³.

ويلحظ في كثير من الأحاديث استعمال صيغة (ألا) التحضيضية المكونة من همزة الاستفهام ولا النافية، وهذه الصيغة فيها مبالغة في الترغيب واستثارة الحوار، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري في سياق حديثه عن قوله ﷺ: «أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» [التوبة: جزء من الآية 13]، «دخلت الهمزة على (لا تقاتلون) تقريراً بانتفاء المقاتلة والحض عليها على سبيل المبالغة»⁴.

شوق الرسول ﷺ في هذا الحديث الصحابة ﷺ لمعرفة الإجابة، لأن النفس البشرية تتشوق إلى المعرفة وتشتاق إليها، وتتفر من الجهل، وتأبى أن توصف به، فكيف إذا كان العلم من الرسول ﷺ والمتلقون هم الصحابة ﷺ.

¹ - رياض الصالحين، ص108.

² - عباس محمود عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة ط1. القاهرة: 1996م، دار الفكر العربي، ص120.

³ - أمانة بلعلى، "الإقناع: المنهج الأمثل للتواصل والحوار"، ص225.

⁴ - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص244.

وعن جابر رضي الله عنه قال: أُتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فدَققتُ البابَ فقال: «مَنْ هَذَا؟» فقلتُ: أَنَا، فقال: «أنا أَنَا» كأنه كَرِهَهَا¹.

إن قول جابر رضي الله عنه (أنا) لا يتضمن الجواب، ولا يفيد العلم بما استعلمه النبي صلى الله عليه وسلم «وكان حق الجواب أن يقول: (أنا جابر) ليقع تعريف الاسم الذي وقعت المسألة عنه، إذ لم يحصل بقوله (أنا) فائدة ولا زيادة بل الإيهام باق»²، ولذلك انتقد النبي صلى الله عليه وسلم جواب جابر الذي لم يحصل به المقصود من سؤاله حين استفسر عن هوية الطارق بقوله: (من ذا)، وعرف نقده من تعريضه بجواب جابر حين رد عليه مكرراً قوله: «أنا أنا»، والتعريض خلاف التصريح من القول إذ إن تتابع التوجيه بطريقة مباشرة وكثرته تجعل منه أمراً مملاً في كثير من الأحيان، فإذا ما أُدِّي من خلال تعريض أو تشبيه أو مثال، أو غيرها من أساليب البيان أصبح أكثر تأثيراً في المتلقي وذلك لأن نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب ينشط ذهن السامع ويوقظه، ويجعله أكثر استعداداً لتلقي الرسالة، فالغرض الإنجازي في هذا الحديث متضمن في أسلوب الاستفهام الذي نتج عنه فعلاً تأثيرياً، والقرينة قول جابر رضي الله عنه: «كأنه كَرِهَهَا» إذ إنه فهم تعريض النبي صلى الله عليه وسلم بجوابه.

وقد يعمد المتكلم إلى أن يصدر كلامه بالسؤال قصداً منه إلى التشويق إليه، لأنه أمر عظيم أو عجيب، أو ما إلى ذلك من المعاني التي تصاحب معنى التشويق، ومن أمثلة ذلك في الحديث النبوي الشريف الحديث الذي رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَلَمْ تَرَ آياتَ أَنْزَلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلَهُنَّ قَطُّ» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾³.

تصدّر الحديث فعل إنجازي (ألم تر)، والمرسل هنا حين يستفهم لا ينتظر رداً من المتلقي ولكن ما يهّمه هو إحداث التفاعل بينه وبين المتلقي، وتحقيق مبدأ الإفادة، فالخطاب الإنشائي لا يصف الواقع إنما يدفع إلى التأثير فيه وتغييره والأساليب الإنشائية هي أبرز مظاهر اللغة التي تعرب عن حيويتها⁴.

ونجد في بعض الأحاديث أن صلى الله عليه وسلم يأتي في كلامه بما يخفى على المخاطب، ويكون غريباً عليه فيدعوه ذلك إلى التساؤل والحوار، ثم يستعمل أسلوب الاستفهام ليوضح الأمر للمخاطب

¹ - رياض الصالحين، ص 240.

² - ابن حجر، فتح الباري، ج 11، ص 42.

³ - رياض الصالحين، ص 269.

⁴ - خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية، ط 1. تونس: 2001م، المؤسسة العربية للتوزيع، ص 16.

ومن ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه أن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قال: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»¹.

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: «وفي بضع أحدكم صدقة» غرابة تثير حوارا، وهذا بالفعل ما حدث فالصحابية رضي الله عنها لم يستطيعوا السكوت على هذه المعلومة، لأنّ الذي وقر في أذهانهم أنّ الأجر إنّما يكون على الواجبات التي يتحمل المسلم في أدائها شيئا من المشقة، أمّا الشهوات التي يمارس فيها الإنسان غريزته فكيف يكون له فيها أجر إن أتاها؟ فإتيانه صلى الله عليه وسلم بهذه الجملة أثار حوارا حرك السامعين وجعلهم أكثر تجاوبا معه.

ولعل مما زاد في إثارة ذهن الصحابة رضي الله عنهم تركيب الجملة ومجيئها على خلاف تركيب الجمل التي سبقتها، فتبدوا أنها غير معطوفة على ما قبلها وإنّما هي مستأنفة، وقدم فيها الجار والمجرور وحقه التأخير، وأسهم في ذلك أيضا تأخير الجملة إلى آخر الحديث ليتوقف عندها. وقد يرد أسلوب الاستفهام بغرض التلطف في العرض، ومن ذلك حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟»².

في هذا الحديث تصدّرت جملة الاستفهام أداة تحضيض "ألا"، وهي كما سبق وأن ذكرنا تشكل مع فعلها فعلا كلاميا يفيد معنى العرض، وهذا التلطف في العرض الغرض منه عدم إشعار المتفتيان وهما علي بن أبي طالب وفاطمة (رضي الله عنهما) بأنّ الأمر مفروض عليهما فالابتعاد عن استعمال الخطاب الذي يدل على الطلب المباشر، وعدم الإلحاح على الأمر يؤثر على النتيجة المترتبة عن الخطاب.

وعن عائشة (رضي الله عنها) أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لفاطمة (رضي الله عنها): «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تُكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟»³.

¹ - رياض الصالحين، ص 50.

² - المصدر نفسه، ص 295.

³ - نفسه، ص 197.

نلاحظ أنّ الفعل الإنجازي يتقدّمه حرف من حروف الاستفتاح "أما"، وتحمل هذه الأداة ملاحظة في صيغة الاستفهام "أما ترضين؟" فالفعل الإنجازي هنا غرضه التأثير على المتلقي فالرسول ﷺ يحث فاطمة (رضي الله عنها) على الصبر والتجدد، فالصبر مآله المرتبة العليا عند الله تعالى، ونلاحظ أنّ الرسول ترقى بابتها من المحزن إلى المفرح في موقف واحد فبعد أن أبلغها بأن أجله قد حان وبعدها رأى من فزعها ما رأى، أخبرها بأنها ستكون سيدة أهل نساء الجنة، ولذا عليها بالصبر والتجدد.

وللعاطفة مكان في الخطاب النبوي، فمراعاة الجانب النفسي والعاطفي أساس في عملية التبليغ، إذ أنه يملك ما يملك من التأثير على النفس البشرية، ليدعوها من خلال هذا الجانب للالتزام بما هو خير.

ونجد في بعض الأحاديث ورود أسلوب الاستفهام الحقيقي أي الذي يقصد منه طلب معرفة أمرا نجهله، ولكننا إذا تأملنا جيدا نجد غرضا آخر مضافا إلى الغرض الظاهر من الاستفهام ومثل ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ لقي ركبا بالروحاء، فقال: «من القوم؟» قالوا: المسلمون، قالوا: من أنت؟ قال: «رسول الله»، فرفعت امرأة صبيّا فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر»¹.

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله ﷺ: «من هذه؟» حين سأل عائشة (رضي الله عنها) عن امرأة كانت عندها²، فالرسول ﷺ في هذا المقام يسأل من باب العناية بالمخاطب فكان ﷺ يتعرف على من يلتقي به أو من يقصده وافدا أو طالبا للفتوى.

خلصنا في نهاية هذا الفصل الى جملة من نتائج أجزناها فيما يلي:

- نظرت التداولية إلى أسلوب الاستفهام على أنه فعل كلامي يرمي إلى التأثير في المخاطب بدعوته إلى ترك أو فعل أو تقرير أو نفي وغيرها من المعاني.
- تضمنت الأفعال الكلامية الواردة في الأحاديث النبوية الطابع النفعي، والذي يقصد من خلاله التواصل بغية تحقيق منفعة، وتحقيق الفائدة من الرسالة هو غاية المرسل فالأفعال الكلامية الواردة في الأحاديث النبوية تحمل شحنة دلالية، مما جعلها وسيلة للتأثير وتغيير السلوكيات الإنسانية.

¹ - رياض الصالحين، ص 197.

² - المصدر نفسه، ص 240.

- استعمل الرسول ﷺ كل من الاستراتيجية التوجيهية والاستراتيجية التضامنية لإنجاز عملية التواصل وذلك بإيصال الرسالة إلى المتلقين، وتغيير مفاهيمهم العقيدية وتصحيحها وإرشاد الناس إلى المبادئ التي يسيرون عليها لتحقيق الهدف الأسمى الذي هو رضا الله ﷻ ودخول الجنة.
- جاءت الأفعال الكلامية بأسلوب الاستفهام فأسهم ذلك في تقبل المتلقين لها لأنها جاءت بأسلوب مقنع بعيد عن الإكراه والتكليف.
- لاحظنا غلبة التقريريات في الحديث النبوي وذلك ربما راجع إلى أن الرسول ﷺ في مقام تقرير بغية إيلاغ مجموعة من التشريعات الإلهية ولهذا ارتأى أن يكون الأسلوب التقريري وسيلة مناسبة لتحقيق ذلك.
- وجدنا تطابقا بين ما ذهب إليه شراح الحديث وما جاءت به التداولية، من خلال الفعل التأثيري فقد تنبهوا إلى تأثير الفعل الانجازي الصادر من الرسول ﷺ على الصحابة مثلما رأينا في حديث أسامة بن زيد حين تمنى لو أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم.
- استخدم الرسول ﷺ عبارة (ما بال أقوام) لعتاب أصحابه دون أن يحدد واحدا من الذين خالفوه، فلم يكن الرسول ﷺ مجرد واعظ يلقي الحديث أو الخبر ويمضي، بل كان يخاطب الناس مراعيًا اعتباراتهم ومشاعرهم، محافظا على كرامتهم.
- استعمل الرسول ﷺ أسلوب الاستفهام ليس كأداة تعبيرية فحسب وإنما باعتباره أحد عناصر الإبلاغ والبلاغة، والإثارة والإقناع، لمقدرته الكبيرة على تحريك النفوس وإيقاظ الشعور.
- لقد حاولنا من خلال هذا الفصل الوصول إلى إبراز الأثر الذي يحدثه النص في متلقيه فالرسول ﷺ جاء لتغيير وضع قائم واستبداله بوضع آخر جديد، وبالتالي فالتداولية هي آليات وإجراءات تساعد على فهم نص الحديث النبوي، والكشف عن خباياه وقصديته ومدى تأثيره في الآخر، كما قد تسمح لنا بإعادة قراءة جديدة للحديث النبوي تزيد من فهمنا له.

خاتمة:

وصلنا إلى خاتمة البحث وعلينا أن نشير إلى أن الفصل بين المستويات الثلاثة في هذه الدراسة لا يعني عدم التكامل بينها، بل على العكس، إذ إن الفصل بينها ساعد على الكشف عن مواطن افتراق المستويات اللغوية ومواطن التقائها واتفاقها، كما ساعد على تحديد الأهداف التي كنا ننوي الوصول إليها.

وكان الجانب النحوي أسبق في هذا البحث لأنه مسؤول عن تقرير صحة الكلام فهو ينظر في الجائز وغير الجائز من حيث الصواب والخطأ، أما البلاغة فلا يعنىها هذا المعيار فعلم المعاني يجيء عقب انتهاء مهمة النحو والتصريف وعلم اللغة، إذ إن النحاة حاولوا تقديم صورة مثالية كاملة للغة فلما لم يسعفهم الشاهد تطوعوا بتقدير هذه الصورة وهذا ما يدخل في جانب التأويل النحوي، بينما البلاغيون حاولوا استغلال انحراف هذا الشاهد عن القاعدة من زاوية فنية دون أن يرفضوا ما فيه من انحراف، أما التداولية فإنها اهتمت بمدى تحقق عملية التواصل بين المرسل والمرسل إليه ومدى تحقيق الرسالة لفعل التأثير على المتلقي.

بعدما تناولنا أسلوب الاستفهام في الحديث الشريف من خلال الأبعاد الثلاث: البعد النحوي والبعد البلاغي والبعد التداولي، أمكننا القول إن خطاب الرسول ﷺ كان يعطي لنا في كل مرة وجهاً جديداً يطلعنا على خفايا كامنة، إما من ناحية الشكل اللغوي، وإما في الدلالات المنبثقة عن ذلك الشكل، وإما في مقاصد وأغراض هذا الخطاب، منظورا إليه على أنه خطاب ساهمت في تكوينه عناصر متضافرة تتمثل خاصة في الأشخاص المشاركين في الحوارات، واشتراكهم في الخلفية المعرفية، وأيضاً البيئة والزمن، والتفاعلات بين الأشخاص ونواياهم، ومقاصدهم.

لذلك أمكننا الخلوص إلى نتائج نهائية تتمثل في:

- اعتنت أن الدراسة النحوية التي تعنتي بمسائل مرتبطة بالمتكلم بعده منتجا للخطاب، والدراسة البلاغية التي تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته اللفظية، والتركيبية، والدلالية والعلاقات القائمة بينها، والدراسة التداولية التي تتناول الخطاب من وجهة نظر مقاصده وأغراضه، والتي تأخذ بعين الاعتبار الظروف المساهمة في إنتاجه، هي دراسات متكاملة يمكن لها أن تشكل منهجا منسجما في تناول الخطاب أو النص منظورا إليهما داخليا وخارجيا.

خاتمة

- تحدّث النحاة عن أدوات الاستفهام في إفادتها المعنى الأصلي الذي استقلت به، وبعدهم أتى البلاغيون ليتحدّثوا عمّا تخرج إليه من معان أخرى بحكم السياق والاستعمال، أما التداولية فقد نظرت إلى أدوات الاستفهام على أنها أفعال كلامية ترمي إلى التأثير في المخاطب، بدعوته إلى إبرام عقد أو فسخه أو ترك أو فعل أو تقرير أو نفي وغيرها من المعاني.
- اشتمل الخطاب النبوي على منهج متكامل في التعامل سواء أكان ذلك مع الصحابة رضي الله عنهم أم مع غيرهم وذلك بتوفيق من الله عز وجل، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: الآية 159].
- حاكى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العرب في استعمالهم للأساليب النحوية والبلاغية، ومن هذه الأساليب أسلوب الاستفهام الذي تنوع عنده فكان حقيقيا، ومجازيا، منتهجا بذلك نهج العرب سالكا سبيلهم إلا أنه جدّد فيه، وذلك بتطويعه لأغراض الدعوة، وتوظيفه لخدمتها، فجاء لأغراض شتى ولغايات متنوعة إلا أنّها كلها تصب في هدف واحد هو تعليم الأمة ونصحها وإرشادها، وإقالة عثرتها، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.
- أعطى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جوامع الكلم، وهي ملكة وموهبة يقتدر بها على إيجاز الألفاظ مع سعة المعاني وبنظم لطيف لا تعقيد فيه.
- كان الميل إلى اعتماد الأساليب الإنشائية من أهم الخصائص الشكلية البارزة في الأحاديث النبوية، وذلك لأنها تمنح المتكلم حرية ومجالا واسعا للتعبير والإقناع والتأثير بالجوء إلى استعمال أساليب مختلفة من نهي وأمر ونفي واستفهام.
- وجدنا أنّ الأحاديث النبوية أكثر ملائمة للدراسة التداولية وذلك لتوفر المبادئ التي تقوم عليها التداولية (التأثير في المخاطب، مراعاة السياق، الافتراض المسبق).
- اهتم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالمخاطبين في توالى الأساليب الإنشائية لإثارتهم، واستمالتهم للقيام بما وكل إليهم.
- ارتبط الفعل الإنجازي بمقاصد المتكلم، ويؤول هذا إلى قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما الأعمال بالنيّات.

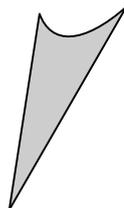
خاتمة

- امتلك رسول الله ﷺ القلوب قبل العقول إذ أن في أسئلته ﷺ براعة مدهشة، فجميع أسئلته سواء ما كان منها لعلاج مشكلة، أو إنكار خطأ، أو تحديد مفهوم، كلها تحمل بين جوانبها الاحترام لمشاعر الصحابة ﷺ، ومراعاة لنفسياتهم.
- كان الرسول ﷺ يختار المسائل القريبة من أذهان الصحابة ﷺ وواقعهم وبيئتهم ولم يكن يسألهم عن أمور يصعب عليهم فهمها.
- ورد أسلوب الاستفهام الحقيقي في الكثير من النصوص، وكان الغرض منه طلب الفهم وإرادة العلم عن شيء، ولعل الحكمة في توافر الاستفهام بدلالته الحقيقية أنه ﷺ مشرّع لهذه الأمة دينها وفقهاها، فكان لا بد له أن يستفهم عن جوانب الموضوع وكل ما يتعلق به من قريب أو بعيد ليشمل حكمه جوانب المسألة كلها، لأن حكمه سيكون خالدا إلى يوم القيامة.
- استعمل الرسول ﷺ أسلوب الاستفهام لما يمثله من طاقة حجاجية هامة ولمقدرته الكبيرة على الإيحاء والإثارة والتشويق والحث، فكان عنصرا إبلاغيا مهما، ولم يكن مجرد أداة تعبيرية فحسب.
- عمد الرسول ﷺ إلى المغايرة بين الأساليب الإنشائية والخبرية، كي لا يكون أسلوبه على وتيرة واحدة تبعث على الملل والسآمة في نفوس المتلقين، وحتى يجدد نشاط السامعين ويجعلهم يتفاعلون مع كل ما يقال، وهذا لكي يحقق عنصر التأثير عليهم ويؤثر فيهم.
- أكثر الرسول ﷺ من الأساليب الإنشائية باعتمادها وسيلة للتعبير عن أفكاره الصادرة عن قصد ونية، وهذا راجع إلى ما تتمتع به هذه الأساليب من قوة في التأثير على المتلقي وإقناعه بطرق يسيرة، وبعيدة عن التكلف، والصنعة نظرا لدورها الفعّال وقدرتها على الإبلاغ وتحقيق الفهم.
- تميز الاستفهام في ضوء المنهج النبوي بمزايا تربوية كالشمول، والتنوع، والتوجيه إلى القضايا المهمة، خاصة العقائدية منها.

الاقتراحات:

- الإفادة من شواهد الاستفهام النبوي في الدرسين البلاغي والنحوي، وذلك بدلا من الإقتصار على شواهد محددة، نجدها في كل مؤلف بلاغي أو نحوي، وكأنما هو الشاهد الوحيد.
- إعطاء الحديث الشريف عناية أكبر، ومساحة أوسع في الاستشهاد النحوي، لما ثبت من دقة العلماء حين جمعه، ودونوه من خلال الجرح والتعديل، فالعلوم المتعلقة بالحديث دليل كبير على صلاحية الاستشهاد به وجعله المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في الاستشهاد به.

قائمة المصادر والمراجع



- القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع).

1- المعاجم:

- 1- أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم ابن منظور، لسان العرب، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، ط3. بيروت: د ت، دار إحياء التراث العربي.
- 2- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الفروق اللغوية، د ط. القاهرة: 1353 هـ، مكتبة القدس للنشر.

2- المصادر:

- 1- ابن قتيبة الكوفي الدينوري، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4. مصر: 1382 هـ - 1963م، مطبعة السعادة.
- 2- ابن علي ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط2. بيروت: 1997م، دار الكتب العلمية.
- 3- أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج ط1. عمان: 2002 م، دار ابن حزم.
- 4- أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، تح: أبو عبد الرحمن عادل ابن سعد، د ط. باب الواد الجزائر: د ت، دار الرشيد للكتاب.
- 5- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، ط 4. بيروت: 1281هـ، دار الفكر للطباعة.
- 6- أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص، تح: محمد علي النجار، ط2. لبنان: د ت، دار الهدى بيروت.
- 7- _____: اللمع في العربية، تح: حامد المؤمن، د ط، بغداد: د ت مطبعة العاني.
- 8- أبو القاسم الزجاجي، حروف المعاني، تح: علي الحمد، ط1. 1984م، مؤسسة الرسالة.
- 9- أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب المقدمة، د ت. تونس، الجزائر: 1984م، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب.
- 10- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: محمد فؤاد سركين، د ط، القاهرة: د ت مكتبة الخانجي.
- 11- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، د ط. القاهرة: د ت، عيسى البابي الحلبي.

قائمة المصادر والمراجع

- 12- أحمد ابن زكريا ابن فارس، الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، تح: محمد الشويمى، د.ط. بيروت: 1383هـ- 1964م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر.
- 13- بدر الدين محمد الزركشى، البرهان فى علوم القرآن، ط3. القاهرة: 1980م، دار الفكر للطباعة والنشر.
- 14- بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح، ط4. لبنان: 1412هـ- 1992م، دار البيان العربى ودار الهادى بيروت.
- 15- جلال الدين السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن، ط1. مصر: 1979م، المطبعة الأزهرية.
- 16- _____: الاقتراح فى علم أصول النحو، ط1. مصر: 1979م المطبعة الأزهرية.
- 17- جلال الدين محمد بن سعد بن عبد الرحمن القزوينى، الإيضاح، د.ط. لبنان: د ت دار الكتب العلمية بيروت.
- 18- جمال الدين بن مالك، شواهد التوضيح والتصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط. القاهرة: د ت، مكتبة دار العروبة.
- 19- جمال الدين بن هشام الأنصارى، مغنى اللبيب عن كتب الأعراب، تح: مازن المبارك ومحمد على حمد الله، ط5. بيروت: 1979م، دار الفكر.
- 20- الحافظ بن عبد الرحمن السخاوى، حياة الإمام النووى رحمه الله، تع: مصطفى البغا د ط الجزائر: د ت، دار الهدى عين مليلة.
- 21- الحافظ بن كثير، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، تع: محمد ناصر الدين الألبانى، تح: على بن عبد الحميد الحلبي، ط1. الرياض: 1996م، مكتبة المعارف.
- 22- الحسن بن قاسم المرادى، الجنى الدانى فى حروف المعانى، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط2. بيروت: 1983م، منشورات دار الأفاق.
- 23- الحسين بن أحمد بن خالويه، الحجة فى القراءات السبع، تح: عبد العال سالم مكرم ط6. بيروت: 1417هـ- 1996م، مؤسسة الرسالة.
- 24- ركن الدين محمد بن على الجرجانى، الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة، تح: إبراهيم شمس الدين، ط1. بيروت: 1423 هـ- 2002م، دار الكتب العلمية.

قائمة المصادر والمراجع

- 25- سعد الدين التفتزاني، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد الهنداوي ط1. بيروت: 1422هـ- 2001م، دار الكتب العلمية.
- 26- الشاطبي، الموافقات، ج4، د ط. بيروت: د ت، دار المعرفة.
- 27- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، د ط. مصر: 1397هـ- 1977م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 28- علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تح: محمد خل الله، ومحمد زغول سلام، د ط. مصر: 1387هـ- 1968م دار المعارف.
- 29- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط 7. مصر: 1418 هـ- 1998م، مكتبة الخانجي.
- 30- عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3. القاهرة: 1408هـ- 1988م، مكتبة الخانجي.
- 31- محمد بن عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ط4. مصر: 1382هـ- 1963م، مطبعة السعادة.
- 32- محمد بن يزيد المبرد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، د ط. بيروت: 1963م، عالم الكتب.
- 33- _____: الكامل، تح: محمد أحمد الدالي، ط3. بيروت: 1418هـ- 1997م، مؤسسة الرسالة.
- 34- محمد محي الدين، هداية السالك إلى تحقيق أوضح المسالك، تح: يوسف المرعشلي ط8. لبنان: 1406هـ- 1996م، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- 35- يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، د ط. مصر: 1914م، مطبعة المقتطف.
- 36- يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تح: عبد الفتاح شلبي، د ط. مصر: د ت، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- 37- يوسف بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، د ط. بيروت: 1420هـ- 2000م، دار الكتب العلمية.

3- المراجع:

- 1- أحمد الحملوي، شذا العرف في فن الصرف، د.ط. بيروت: د.ت، المكتبة الثقافية.
- 2- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ط1. الدار البيضاء: 1986م دار الثقافة.
- 3- أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، دار الفكر العربي، د.ط. القاهرة: 1996م، مطبعة الرسالة.
- 4- أحمد محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.ط. مصر: 2002 م دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
- 5- -_____ : التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل، د.ط. القاهرة: 1999م مكتبة زهراء الشرق.
- 6- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط7. مصر: 1997م، عالم الكتب للنشر.
- 7- الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، ط1. الدار البيضاء: 1992م المركز الثقافي العربي.
- 8- بسيوني عبد الفتاح فيود: دراسات بلاغية، ط1. مصر: 1419هـ- 1998م، مؤسسة المختار للنشر.
- 9- -_____ : علم المعاني، د.ط. القاهرة: د.ت، مكتبة وهبة.
- 10- بوجمعة شتوان، بلاغة النقد وعلم الشعر في التراث النقدي، ط1. منشورات مخبر تحليل الخطاب، تيزي وزوي: 2007م، دار الأمل للنشر والتوزيع.
- 11- تمام حسان، الأصول، دراسة إبستمولوجية لفكر اللغوي عند العرب، د.ط. القاهرة: 2000م، عالم الكتب.
- 12- خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية، ط1. تونس: 2001م، المؤسسة العربية للتوزيع.
- 13- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ط1. الجزائر: 2009م، بيت الحكمة.
- 14- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ط1. منشورات مخبر تحليل الخطاب تيزي وزو: 2005م، دار الأمل للنشر.

قائمة المصادر والمراجع

- 15- الرويلي ميجان، والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط3. الدار البيضاء: 2002م
المركز الثقافي العربي.
- 16- شفيق السيد، البحث البلاغي عند العرب، تأصيل وتقييم، ط1. مصر: دت، دار
الفكر العربي القاهرة.
- 17- صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني
د. ط. الجزائر: 1994م، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 18- الصديق ابن علان، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ط2. بيروت: 1996م
دار المعرفة.
- 19- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1. مصر: 1996م، شركة لونغمان
العالمية للنشر.
- 20- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2. الدار البيضاء:
2000م المركز الثقافي العربي.
- 21- ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1. ليبيا: 2004م
دار الكتاب الجديد المتحدة.
- 22- عباس فضل حسن، البلاغة العربية فنونها وأفانها، علم المعاني، ط4. الأردن: دت
دار الفرقان.
- 23- عباس محمود عبد الواحد، قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية
الحديثة وتراثنا النقدي، ط1. القاهرة: 1996م، دار الفكر العربي.
- 24- عبد الرحمن حسن الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط1. بيروت:
1412هـ-1996م، دار القلم دمشق، والدار الشامية.
- 25- عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل
المعاني ط2. بيروت، 1405هـ-1984م، عالم الكتب.
- 26- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، د. ط. بيروت: 1970م، دار النهضة العربية
للطباعة والنشر.
- 27- عبد الله محمد سعيد، أساليب الطلب في الحديث النبوي، دراسة بيانية في الموطأ
د. ط. القاهرة: دت، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

قائمة المصادر والمراجع

- 28- عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، دط. 1999م - 1420هـ، مكتبة الآداب.
- 29- عبده عبد العزيز قليقطة، البلاغة الاصطلاحية، ط3. القاهرة: 1992م، دار الفكر.
- 30- فتحي عبد الفتاح الدجني، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم، د ط، الكويت: 1984م مكتبة الفلاح.
- 31- فضل حسن عباس، البلاغة العربية فنونها وأفنانها، ط2. الأردن: 1409هـ - 1989م دار الفرقان.
- 32- قطبي الطاهر: الاستفهام البلاغي، د ط. الجزائر: 1992م، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 33- _____: الاستفهام النحوي، د ط. الجزائر: 1992م، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 34- قيس اسماعيل الأوسي، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د ط. بغداد: 1988م بيت الحكمة للنشر والتوزيع.
- 35- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ط1. الجزائر: 2008م، دار التنوير للنشر والتوزيع.
- 36- محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ط2. مصر: 1988م، مكتبة وهبة.
- 37- محمد أحمد قاسم، إعراب الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في شرح بن عقيل، ط1. بيروت: 2003م المكتبة العصرية صيدا.
- 38- محمد الغزالي، خلق المسلم، ط15. دت، مكتبة رحاب.
- 39- محمد سيد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، د ط. مصر: 2003م، دار النهضة.
- 40- محمد عجاج الخطيب، أصول الحديث، علومه ومصطلحه، ط4. 1981م، دار الفكر للطباعة.
- 41- محمود فجال، الحديث النبوي في النحو العربي، ط2. الرياض: 1417 هـ - 1997م، أضواء السلف.
- 42- مصطفى أحمد المراغي، علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، ط1. لبنان: 1402هـ - 1982م، دار الكتب العلمية بيروت.

43- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، د ط. الجزائر: 2005م
دار الأصالة.

4- الرسائل الجامعية:

1- مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي
أطروحة دكتوراه جامعة الحاج لخضر، باتنة: 2003 - 2004م.

5- الكتب المترجمة:

1- أرمينيكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ط1. الرباط: 1986م
مركز الإنماء القومي.

2- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني
ط1. بيروت: 2003م، دار الطليعة.

3- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، د ط. الجزائر:
1992م، ديوان المطبوعات الجامعية.

4- فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسين بحيري، ط1.
مصر: 2001م، دار القاهرة للكتاب.

6- المجلات والدوريات:

1- مجلة التراث العربي دمشق: مارس 2003م، ع 89.

2- مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت: 1992م، ع 98.

3- مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق: د ت، ع 14.

4- مجلة القصة، 1999 م، ع 2.

5- مجلة فصول، 2005م، ع 66.

6- مجلة الوصل، معهد اللغة العربية وآدابها، تلمسان: 1994م، ع 1.

7- مجلة عالم الفكر، 2004م، ع 3.

8- مجلة اللغة والأدب، د ت، ع 17.

7- الكتب باللغة الأجنبية:

- 1- J.L. Austin, Quand dire c'est faire, Traduction Gillet Lane, Edition du seuil, Paris, 1970.
- 2- O.Ducrot, Dire et ne pas dire, Principe sémantique-linguistique 3^{ème} Édition Hermann Editeur de science des arts, Collection savoir – sciences.

فهرس الموضوعات

1مقدمة
08تمهيد

الفصل الأول: الاستفهام من المنظور النحوي

221. أهمية علم النحو
222. تعريف الاستفهام
233. أهمية أسلوب الاستفهام
254. الاستفهام من منظور النحاة
295. أدوات الاستفهام
356. دراسة أنماط الجملة الاستفهامية في الحديث النبوي

الفصل الثاني: الاستفهام من المنظور البلاغي

591. أهمية علم البلاغة
592. الاستفهام في الدراسات البلاغية عند القدماء والمحدثين
643. المعاني البلاغية للاستفهام عند البلاغيين
664. إفادة الاستفهام العديد من المعاني
685. الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام

الفصل الثالث: الاستفهام من المنظور التداولي

981. تعريف التداولية
1002. أهمية الدراسة التداولية
1013. آليات التحليل التداولي
1074. الأساليب الإنشائية من منظور النظرية التداولية

1085. الاستفهام من منظور مباحث التداولية.....
1116. الأفعال الكلامية في الأحاديث النبوية.....
133خاتمة.....
138قائمة المصادر والمراجع.....
146فهرس الموضوعات.....